

دار ابن الفهمان

مُسرّحية في ثلاثة فصولٍ
وسبعة مشاهدٍ

تأليف

علي أحمد باكثير

الناشر

مكتبة مصر

٣ شارع كامل صدقي - البجالة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * إِنْ يَمَسُّنْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ .

(قرآن کریم)

أشخاص المسرحية

(حسب ترتيب ظهورهم على المسرح)

- أحمد : فلاح شاب من أشمون .
ناعسة : ابنة شجر الدر بالتبني . ابنة عم أحمد
شجر الدر : زوجة الملك الصالح أيوب
جمال الدين : الطواشي محسن
أقطاي : فارس الدين من كبار أمراء المماليك
أيك : عز الدين من كبار أمراء المماليك
السلطان : الملك الصالح أيوب
فخر الدين : ابن شيخ الشيوخ قائد العساكر
مرجريت : زوجة لويس التاسع
بياتريس : أخت مرجريت وزوجة الكونت أنجو شقيق الملك
چان : زوجة الكونت بواتيه شقيق الملك
لويس : لويس التاسع ملك فرنسا
دارتوا : الشقيق الأصغر للملك
بواتيه : شقيق الملك
أنجو : شقيق الملك
جوهر : مملوك فخر الدين ابن شيخ الشيوخ
الرسول : من رجال توران شاه

الفصل الأول

المشهد الأول

بهو متوسط في القصر السلطاني بأشموم طنّاح (أشمون
الرمّان) .

أريكة فخمة في صدر المسرح لجلوس السلطان .
وأمامها من يمين وشمال أريكتان مستطيلتان دونها في
الارتفاع .

للبهو ثلاثة أبواب : الأول في الطرف الأيمن من صدر
المسرح ويؤدي إلى جناح السلطان .

والثاني على يمين المسرح ويؤدي إلى جناح الحريم .
والثالث في أدنى يسار المسرح ويؤدي إلى جناح الرجال
وفي أقصاه شبّاك كبير .

(الوقت قبيل الزوال)

(يرفع الستار عن أحمد وناعسة واقفين في الجانب
الأيسر من المسرح يتناجيان بصوت خافض بجوار الباب
الثالث) .

أحمد : وكيف حال مولانا السلطان يا ناعسة ؟

ناعسة : بحاله يا أحمد .

أحمد : ألم يفد شيئاً من هواء مدينتنا ؟ العادة أن صحته تتحسن

كلما استجتم هنا في أشمون .

ناعسة : وهل جاء هذه المرة للاستشفاء أو الاستجمام ؟ إنما تجشم
المجىء إلى هنا وهو في أشد حالات المرض ليكون على كثر
من خط القتال .

أحمد : صدقت . لن أنسى أبدا منظره الرائع يوم قدم المدينة محمولا
على محفة ، كان كأنه أسد جريح محمول في قفص .

ناعسة : لو رأيته أمس يا أحمد حين بلغه نزول عساكر الفرنج في
دمياط كيف يتقل على فراشه لتقطع قلبك رثاء له . كان
يصيح بصوت مكظوم : يا رب ، هب لي يوما واحدا أقاتل
فيه أعداءك ثم أموت .

أحمد : بل شفاه الله وعافاه وبارك للمسلمين في حياته حتى يشهد
يوم النصر .

ناعسة : آمين يا رب ! أنت القادر على كل شيء .

أحمد : (بعد صمت يسير) هل لك الآن أن توصلي هدية أُمى إلى
ستنا شجر الدر ؟

ناعسة : ألا تحب أن تراها وتسلم عليها ؟ انتظر سأدعوها لتسلمها
الهدية بنفسك (تنطلق خارجة من الباب الأول) .

أحمد : (يتبعها بصره ويتنهد) آه إنها تزداد كل يوم جمالا وفتنة .
من ذا يصدق أن هذه ابنة عمى عويس النحال ؟ لكانها أميرة
من آل أيوب .

أحقا أنها ستكون يوما من نصيبي ؟ أخشى أن يطمع فيها
أحد الأمراء فيأخذها مني ، آه لولا هذا الغزو اللعين

لاستنجزت مولاتها اليوم ما وعدتني به . (تدخل شجر الدر وخلفها ناعسة فيتقدم أحمد نحوها في إجلال) .

شجر الدر : أهلا بك يا أحمد كيف حالك ؟

أحمد : (يقبل يدها في احترام) الحمد لله يا مولاتي .

شجر الدر : وكيف حال أم أحمد ؟

أحمد : أم أحمد تبوس يديك يا مولاتي وتدعو لك في كل صلاة (يقدم إليها القصعة التي في يده) وترجوك أن تقبلي هذا .

شجر الدر : ما هذا ؟ (تتناول القصعة) .

أحمد : هدية على قدرها .. قليل من عسل أشمون من أول قطفة .

شجر الدر : هذا العسل الذي يحبه السلطان ، (تناول القصعة لناعسة) ادخلي به يا ناعسة .

(تخرج ناعسة) .

أحمد : وهى تشكرك يا مولاتي شكرا جزيلا على هداياك وألطافك .

شجر الدر : قل لها إن ذلك قليل فى حقها فهى التى أعطتنى ناعسة .

أحمد : أبقاك الله يا مولاتي . أنت صاحبة الفضل إذ رببت هذه اليتيمة فترعرعت فى ظل نعمتك .

شجر الدر : إني اعتبرها كابنتي يا أحمد .. ابنتى الوحيدة ، فإن قدر لك يوما أن تتزوجها فتذكر دائما أنها ابنة شجر الدر .

أحمد : هل لي حقا يا مولاتي أن أطمع فى هذا الشرف ؟

شجر الدر : أنا عند وعدى لك يا بنى . سأزوجها لك كما وعدتك ولكن بعد أن تنكشف عنا هذه الغمة التى نحن فيها .

أحمد : شكرا يا مولاتي . ستجلى هذه الغمة إن شاء الله ويطرد هؤلاء الغزاة كما طردوا من قبل .

شجر الدر : (تتمم) الله يفعل ما يشاء (كأنها تتذكر شيئا) خبرني يا أحمد أصحيح ما بلغني أن القائد فخر الدين ابن شيخ الشيوخ استدعاك ذات يوم إلى داره قبل سفره بالعساكر إلى دمياط ؟

أحمد : (بعد تردد) نعم يا مولاتي هذا صحيح .

شجر الدر : ترى لأي شيء دعاك ؟

أحمد : كلفني يا مولاتي أن أدعو فتیان هذه الناحية كلها من أول البحر الصغير إلى آخره ليكونوا على أهبة لقتال العدو ، وأعطاني أسلحة لتوزيعها عليهم .

شجر الدر : إذن فقد كان هذا سبب انقطاعك عنا طوال هذين الشهرين ؟

أحمد : نعم يا مولاتي .

شجر الدر : لله در فخر الدين ، يريد أن يقاتل الفرنج بطوب الأرض .

أحمد : (في توسل) لكنه أوصاني يا مولاتي بكتان هذا السر .

شجر الدر : لا تخف . أنا أعرف ماذا يريد ولن أبوح بسره لأحد .

(تسمع من الخارج حممة خيول وقعقة سلاح وضوضاء مختلطة) .

شجر الدر : (مرتاعة) وى ! ما هذا ؟ (تنطلق إلى الشباك في الجانب

الأيسر لتطلع منه وتدخل ناعسة مرتاعة وتبادل النظر

مع أحمد ثم يتقدمان إلى حيث تقف شجر الدر . تلتفت

شجر الدر إلى أحمد) : انزل يا أحمد فادع لي الطواشي
جمال الدين . انطلق .

أحمد : حالا يا مولاتي .

(يدخل الطواشي جمال الدين من الباب الثالث فيرتد
أحمد)

شجر الدر : ما هذا يا جمال الدين ؟ ماذا حدث ؟

جمال الدين : أمراء المماليك يا مولاتي رجعوا بالعسكر من دمياط .

شجر الدر : (في دهش وارتياح) رجعوا بالعسكر ؟؟

جمال الدين : نعم .

شجر الدر : بالعسكر كله ؟

جمال الدين : نعم . بعض وصلوا وبعض في الطريق .

شجر الدر : والقائد فخر الدين معهم ؟

جمال الدين : لا يا مولاتي .

شجر الدر : أين هو ؟

جمال الدين : لا أدري يا مولاتي . إنهم ينتظرون الإذن للدخول على

السلطان ليشرحوا له كل شيء .

شجر الدر : من ذا على رأسهم ؟

جمال الدين : فارس الدين أقطاي وعز الدين أيك .

شجر الدر : ائذن لهما وحدهما وانتظروا في هذا البهو .

جمال الدين : سمعا يا مولاتي . (يخرج) .

أحمد : ائذني لي يا مولاتي أنصرف .

شجر الدر : بل ابق معنا يا أحمد . لعلنا نحتاج إليك .

(تخرج من الباب الأول) .

أحمد : أحسبني يا ناعسة لا مكان لي هنا .
ناعسة : أمرتك بالبقاء وعليك أن تطيع الأمر .
أحمد : ترى ماذا حدث للأمير فخر الدين ؟ كيف رجعوا من
دونه ؟

شجر الدر : (تظهر عند الباب) تعالى يا ناعسة وأنت يا أحمد .
(يغيب الثلاثة) .

(يدخل الطواشي جمال الدين وخلفه فارس الدين أقطاي
وعز الدين أيك) .

أقطاي : أين مولانا السلطان ؟ إن كان عاجزا عن الحركة فلندخل
إليه في حجرته .

جمال الدين : أمرتنا السيدة شجر الدر أن ننتظر هنا .

أقطاي : الأمر خطير لا يحتمل الانتظار .

أيك : حلمك قليلا يا فارس الدين .

أقطاي : (غاضبا) يا عز الدين دعني وشأني . أنا أعرف سبيلي .

(يدخل السلطان متحاملا على ذراعي أحمد وناعسة وقد
سترت نصف وجهها بالخمير فلا يبدو غير عينيها فيقف
الأمراء الثلاثة صامتين كأنما على رؤوسهم الطير من هيبة
السلطان . يدنو السلطان من أريكته فيسحب يديه من
ذراعي أحمد وناعسة كأنه يريد أن يشعر من حوله بما بقي
من قوته فيجلس على الأريكة دون عون . ويتقهقر أحمد
وناعسة حتى يقفا خلف الأريكة من الجانبين : أحمد عن

اليمن وناعسة عن الشمال) .

السلطان : (يدير عينيه الحادثين في وجوه القوم دون كلام كأنما تجمع في عينيه كل ما بقى له من حياة وقد جمدت عضلات وجهه ما خلا شفثيه المرتعشتين ثم ينطق فجأة بصوت عميق كأنما ينبعث من أعماق قلبه) : ماذا جاء بكم يا أمراء الدولة ؟ هل فرغتم من جهاد العدو ؟

الثلاثة : (تلجمهم الهيبة فلا ينطقون) ... ؟

السلطان : (يعلو صوته غضبا) ما بالكم لا تنطقون ؟ أجمكم عار الهزيمة ؟

أقطاي : (يتشجع) كلا يا خوند ، ما انهزمتنا ولكننا انسحبنا مرغمين .

السلطان : ماذا أرغمكم على الانسحاب ؟

أقطاي : فخر الدين ابن شيخ الشيوخ أمرنا بذلك فأطعناه .

السلطان : فخر الدين ؟ كيف ؟ تكلم أنت يا عز الدين ، اشرح لي جلية الأمر .

أيك : كنا في البر الغربي حين نزل الفرنج من مراكبهم على طول خط الساحل .

السلطان : أعلم أنكم عجزتم عن منعهم من النزول ؟

أيك : لأن الساحل غير محصن يا خوند .

السلطان : أعرف . أعرف . ماذا حدث بعد ذلك ؟

أيك : التحمنا مع العدو في معركة غير فاصلة نهار أمس ، فلما أمسى الليل انسحب بنا فخر الدين من البر الغربي إلى البر

الشرقي الذي فيه مدينة دمياط .

السلطان : ثم ماذا؟

أقطاي : كان الواجب يا خوند أن يبقى في البر الغربي ليصد العدو عن دمياط ، لا أن يفسح لهم الطريق للوثوب على المدينة . وقد نصحناه بذلك فأعرض عنا واعتمد كل الاعتماد على جموع الحراشفة من العامة والعربان ، فلما رأينا ذلك منه قررنا أن نرجع إليك لنرى ماذا تأمر .

السلطان : وأين هو فخر الدين؟

أقطاي : لا ندرى أين هو . لقد تركناه وراءنا حين تركنا وشغل نفسه بترتيب جماعات الحراشفة قاصدا بزعمه أن يجعل لهم من دوننا فخر النصر .

(يدخل فخر الدين) .

فخر الدين : السلام على مولانا السلطان .

السلطان : لا سلام عندي لقائد فر من الميدان .

فخر الدين : (يقف بجانب الثلاثة صامتا لا يجيب) ...؟

السلطان : (يعلو صوته غضبا) ألا تحبيني يا فخر الدين؟

فخر الدين : ماذا أقول يا مولاي؟ هذه زلة لا مثيل لها في تاريخ الحروب .

أقطاي : أنت الذي ارتكبتها يا قائد الجيش .

فخر الدين : أنا؟

أقطاي : نعم . ألم تنسحب بالعساكر من البر الغربي لتتيح للعدو

الوثوب على المدينة؟

فخر الدين : لا حديث لي معك يا فارس الدين .

أقطاي : يجب أن تجيب على سؤالى .

فخر الدين : القائد هو الذى يسأل والجندى هو الذى يجيب .

أقطاي : سلى إذن وأنا أجيبك .

فخر الدين : هذا كان فى الميدان هناك يا أقطاي ، أما بين يدى مولانا السلطان فله أن يسأل وعلينا أن نجيب .

السلطان : (محتدا) كفى جدالا أمامى . لا أريد الجدل . ويلكم

كيف تركتم أهل دمياط يواجهون وحدهم جموع الفرنج ؟

فخر الدين : أهل دمياط لم يواجهوا جموع الفرنج يا مولاي . لقد راعهم

انسحاب العسكر من عندهم فخرجوا من المدينة هارين

يسحبون على وجوههم طول الليل ولم يبق بها أحد .

السلطان : يا إلهى ماذا أسمع ، ماذا تقول يا فخر الدين ؟

فخر الدين : ألم يخبرك هؤلاء بما حدث لأهل دمياط ؟

أقطاي : ما حدثناه عن ذلك بعد وكل ما جرى كان بسببك .

السلطان : واعاراه ! لقد استطاعت دمياط أن تقاوم الفرنج فى حملتهم

الأولى سنة كاملة ولم يكن فيها من الذخائر والأقوات

والسلاح ثلث ما فيها اليوم . ويلكم أتركتم كل ما شحنها

به من الأقوات والذخائر والآلات يسقط فى أيديهم عفوا

صفوا ؟

فخر الدين : من حسن الحظ يا مولاي أن المتطوعين من العامة قد

استطاعوا أن يشعلوا الحريق فى سوق دمياط الكبير حتى

لا ينتفع العدو بما فيه .

السلطان : (متهمكا على الممالك) الحراشفة ؟

فخر الدين : نعم .

السلطان : والعساكر المدججة بالسلاح لم تصنع شيئا ؟ ويلكم أيها الجبناء لم تقدروا أن تقفوا ساعة أمام الفرنج ؟

فخر الدين : ليتنا كنا جبناء يا مولاي السلطان ، إذن لربما كان لنا من جبننا شفيع أو عذير .

السلطان : فأى شيء أنتم ؟ خونة ؟

فخر الدين : الخائن يا مولاي يبتغي أجرا على خيانتة . وأنا أعلم علم اليقين أن أحدا منا لم تلامس يده يد فرنجي قط .

السلطان : دعني من أغازك وأحاجيك . اشرح لي بصرح العبارة ما حدث .

أقطاي : لا غرو أن يحاجينا يا خوند فإنه شاعر .

فخر الدين : لا ينبغي يا مولاي أن نتجادل أمامك ، فلو أمرت فاختليت لي حتى تسمع ما عندي في هدوء .

أقطاي : أتريد أن تطردنا من عند مولانا لتفتري له ما تشاء دون رقيب ولا حسيب ؟

أيبك : أجل نحن نحتج على هذا الطلب .

السلطان : اتركاني وحدي مع ابن شيخ الشيوخ وانتظرا أسفل حتى يأتكما أمرى .

أيبك : سمعا يا خوند .

(يخرج أقطاي وأيبك خاسئين) .

السلطان : هل تريد الآخرين يخرجون ؟

فخر الدين : لا يا مولاي ليس عندي ما أخفيه عن أحد .

السلطان : هات إذن ما عندك .

فخر الدين : لما رأيت العدو يفوقنا عددا وعدة رأيت أن أعجم عودهم
في معركة صغيرة فوجدتهم أشداء مستكلبين على القتال
فأشفقت أن التحمت معهم في معركة فاصلة أن يدال لهم
علينا فتسوء العاقبة . عندئذ قررت يا مولاي أن أنسحب
بالعسكر إلى البر الشرقى لأستدرج الفرنج بذلك لعبور
الجسر خلفنا فأمر حينئذ بقطع الجسر فيحال بينهم وبين
مراكبهم الراسية أمام البر الغربى فتنقطع عنهم الإمدادات
ويكونون تحت رحمتنا .

السلطان : جميل جميل .

فخر الدين : وكنت قد عينت جماعات من المتطوعين من عامة الشعب
والعربان ليرابطوا في مكامن من البر الغربى حتى إذا عبر
الفرنج إلينا قاموا هم بمهاجمة سفنهم الراسية هناك
وإحراقها .

السلطان : بديع بديع .

فخر الدين : ورتبت الكنانيين مع فرقة من العسكر داخل المدينة ليقوموا
بالدفاع عنها مع أهلها . أما بقية العسكر فقد رتبتهم ليرابطوا
حول أسوار المدينة ليقاتلوا دونها وعلى الطرق المفضية إلى
الجنوب ليمنعوا العدو من الانطلاق صوب القاهرة . هذا
مجمل ما رسمته يا مولاي .

السلطان : خطة محكمة بارعة .

فخر الدين : وبينما أنا في المدينة أتفقدتها وأوزع من فيها من الكنانيين

والعسكر على حصونها وأبوابها إذ راعنى نبأ بأن أمراء
الممالك قد انسحبوا بعساكرهم من مواقعهم راجعين إلى
أشمون . فانطلقت مسرعاً لأجد المواقع قد خلت منهم حقاً ،
فركبت أعدو خلفهم حتى أدركتهم فجعلت أناديهم
ليرجعوا إلى حيث كانوا فلم يستمع لى أحد . فكررت
راجعاً إلى دمياط فما راعنى إلا أهلها قد خرجوا من ديارهم
بنسائهم وأطفالهم فزعين هارين . فلما سألتهم قالوا : كيف
نبقى فى المدينة وقد خرج الكنانيون منها وانسحب
العسكر . فالتفت الكنانيين حتى وجدتهم فأمرتهم
بالرجوع إلى حيث كانوا فقالوا : ماذا نصنع فى المدينة
وحدنا وقد طفق أهلها يخرجون منها ؟ قلت لا عليكم .
عودوا إلى مواقعكم فقالوا والله لنمضين إلى السلطان لنشرح
له ما حدث . وخشيت أن يشرح لك الأمراء الممالك غير
الحق فأجهدت جوادى حتى وصلت الساعة إليك . فهذه
جلية الأمر يا مولاي .

السلطان : الحمد لله إذ لم يخب ظنى فيك يا فخر الدين . ولكن هؤلاء
الخونة لا بد من عقابهم .

فخر الدين : ليس هذا وقت العقاب يا مولاي وليس فى وسعك أن
تعاقب جيشاً بأكمله .

السلطان : لأعاقبن أمراءهم ..

فخر الدين : ولا هؤلاء فإنك لا تأمن أن تشور فتنة فى البلاد والعدو على
الأبواب .

السلطان : (ينظر إلى الطواشي جمال الدين) ماذا ترى يا جمال الدين ؟

جمال الدين : فخر الدين على حق يا خوند . سيثور لكل أمير أتباعه ثم لا ندرى ماذا تكون العاقبة .

السلطان : (يلحظه في ارتياب) آه لو لم أكن قعيد البيت ! والله لعن قمت من علتي هذه لأستأصلن الخونة ولو كانوا الجيش كله .

فخر الدين : بل تعفو يومئذ يا مولاي وتصفح .

السلطان : كلا لا عفو عندي لمن أضاع بلاد الإسلام ، قم يا جمال الدين فمر بشنق الكنانيين .

فخر الدين : مولاي ليس الكنانيون بأعظم ذنبا من غيرهم .

السلطان : أعلم ذلك ولكن لا يخشى من عقابهم فتنة فليكونوا عبرة لغيرهم .

فخر الدين : ليس من العدل يا مولاي أن

السلطان : (محتدا) ويلك هذا حكم الله فيمن خان بلاد المسلمين ، أو ليس حكم الله عدلا يا فخر الدين ؟

فخر الدين : لكن يا مولاي

السلطان : ويلك لا تراجعني في أمر أمرت ، انطلق يا جمال الدين إلى

شيخ الإسلام فاستفته فيمن عصى أمر قائده في ميدان الجهاد

حتى عرض بلدا من بلاد المسلمين للوقوع في أيدي العدو ثم

نفذ الفتيا في هؤلاء الكنانيين وأعلنها في الناس .

جمال الدين : سمعا يا مولاي وطاعة (يخرج) .

السلطان : (ينظر إلى فخر الدين مليا وفخر الدين واجم ثم يقول له

في رقة) تعال ادن منى يا ابن شيخ الشيوخ (يقترب منه

فخر الدين باقيا في وجومه) واجد بعد على ؟ خذ منى

ترضية ما أعطيتها لأحد قبلك ولن أعطيها لأحد بعدك

(يشد بكلتا يديه عنق فخر الدين إليه فيقبل رأسه) .

فخر الدين : أستغفر الله ، بل أنا الذى أقبل رأسك يا سلطان المسلمين يا

خير ملوك بنى أيوب بعد صلاح الدين (يقبل رأس

السلطان) .

السلطان : اجلس يا فخر الدين قريبا منى . هات ذلك المقعد

(يسحب فخر الدين المقعد فيجلس على عین السلطان) .

السلطان : ناعسة ، انسحبي إلى مولاتك أنت وابن عمك .

ناعسة : سمعا يا مولاي (تنسحب هي وأحمد) .

السلطان : قد علمت يا فخر الدين أن هؤلاء المماليك يحسدونك على

مكانتك عندي ويتحاملون عليك لأنك لست منهم فأرادوا

أن يظهروك أمامي بمظهر العاجز الفاشل ولكن هيات أن

أخذع بعملهم .

فخر الدين : الراى يا مولاي أن تعزلى عن القيادة وتوليها لواحد منهم .

السلطان : مكافأة لهم على الجرم الذى ارتكبهوه ؟

فخر الدين : لا يا مولاي بل لينبعثوا لقتال العدو في صدق ونية .

السلطان : كلا لن أبلغهم ما يشتهون وليس فيهم من يساوى قلامة

ظفرك (يتنهك) يا ضيعة المال الذى أنفقته في شرائهم

وتربيتهم . لقد اعتبرتهم كأبنائى وقدمتهم على غيرهم من

ممالك أبى وأغدقت عليهم الأموال والرتب فهذه عاقبة
ترييتى لهم .

فخر الدين : خفض عليك يا مولاي فإن ترييتك لهم لم تذهب سدى فهم
من أشجع الجنود وأصبرهم على القتال . وكل ما فى الأمر
أنهم يتوجسون منى لما يشاع بينهم أننى أطمح إلى ولاية الأمر
بعدك وإنى سأستغنى عن خدمتهم وأجند من عامة الشعب .
السلطان : تبا لهم أما علموا أننى عرضت هذا عليك فرفضت ؟

فخر الدين : بلى يا مولاي قد بلغهم ذلك فزاد فى مخاوفهم منى . إنهم
لا يأمنون أن تراجعنى بعد فأقبل .

السلطان : إذن والله لأكتبن اليوم عهدى إليك ولتقبلنه وأنت راغم .
فخر الدين : قد بينت لك سابقا أن هذا ليس من الحكمة فى الوقت
الحاضر .

السلطان : لكنى لن أعيش طويلا يا فخر الدين ولا أريد أن ألقى ردى
قبل أن أصلح أمر هذه الأمة وأعيد لها نظام الانتخاب الذى
سنه الإسلام من قبل ، فلا يكون الحكم ملكا يتوارثه الأبناء
عن الآباء فإن هذا الملك هو أساس ما حاق بالأمة من بلاء ،
ولولاه لتوحدت البلاد من أقصى الصعيد إلى ديار بكر
ولما استطاع أن يطمع فيها صليبي من الغرب أو تترى من
الشرق .

فخر الدين : كل هذا حق يا مولاي ولكن ليس من حقلك أن تخاطر
بتنفيذه اليوم والعدو على الأبواب ، وأى انقسام بيننا
سيكون فيه هلاك بلاد الإسلام وضياعها إلى الأبد ،

وما إخالك ترضى أن تتحمل هذه التبعة على عنقك .

السلطان : (يجهش بالبكاء) صدقت يا فخر الدين . لقد فاتنى الأوان . لو أراد الله بى خيرا لوقفنى إليه يوم دعوت أنت إلى هذا الرأى فكان جزاؤك منى الحبس والاعتقال . لقد كنت شجاعا نبىلا يومئذ إذ لم تتنصل من تبعة ما قمت به بل صارحتنى به فى السر وإن أنكرته فى العلانية . ولكن شهوة الحكم أعمتنى عن حقيقتك فعددتك طامعا فى ملكى وما كنت إلا مخلصا لبلاك وأمتك ودينك .

فخر الدين : هون عليك يا مولاي فحسبك مثوبة عند الله أن نويت اليوم ما لم ينوه ملك قبلك قط وما منعك من تنفيذه إلا حرصك على مصلحة المسلمين .

السلطان : إذن فسأكتب لك العهد فى السر لتحتفظ به عندك حتى تعلنه بعد زوال الخطر عن البلاد .

فخر الدين : ربما يتسرب النبا إلى المماليك فيزيدهم حقدا على .

السلطان : كلا لن يعلم بأمره أحد غيرك ، عاهدنى يا فخر الدين على ذلك .

فخر الدين : عاهدتك يا مولاي .

السلطان : وعاهدنى أيضا ألا تتخلى عن قيادة العساكر أبدا حتى يجلو عن ديارنا هؤلاء الصليبيون . أما هؤلاء العصاة فاغلظ عليهم فإنهم لا يصلحون إلا بالشدة .

فخر الدين : مولاي دع الأمور تجري فى أعتها .

السلطان : كلا لا أدعك حتى تعاهدنى أن تبقى فى القيادة ولو قتلوك !

- فخر الدين : عاهدتك يا مولاي .
- السلطان : الآن اطمأن قلبي يا فخر الدين .
- فخر الدين : ولكن لي شرطاً أشرطه عليك .
- السلطان : ما هو ؟
- فخر الدين : إني أريد أن أسترضيهم عنى . فأخبرهم أنني تحملت عنهم
تبعة ما حدث في دمياط وسأعلن أنا في الناس أنها كانت زلة
منى وأنا المسؤول عنها وحدي .
- السلطان : لكن لا ينبغي أن يشنع الناس عليك وأنت برىء .
- فخر الدين : لا بأس يا مولاي إن في ذلك مصلحة لنا عند العدو .
- السلطان : ماذا تعنى ؟
- فخر الدين : أهون علينا عند العدو أن يشاع أن القائد هو الذى انسحب
بالجيش من أن يقال أن الجيش كله هو الذى عصى قائده ففر
من الميدان .
- السلطان : بوركت يا فخر الدين . لك عندي ما طلبت .
- (يدخل الطواشي جمال الدين) .
- السلطان : ماذا وراءك ؟ هل نفذت أمرى في الكنانيين ؟
- جمال الدين : نعم يا مولاي . أفتى شيخ الإسلام بالقتل فأمرت بشنقهم .
- السلطان : أحسنت . ادع لي الآن هذين الشقيين أقطاي وأبيك .
- جمال الدين : سمعا يا مولاي (يخرج) .
- السلطان : (يلحظ التأثير في وجه فخر الدين) لا تبئس يا فخر
الدين . في القصاص حياة .
- فخر الدين : لك يا مولاي الرأي الأعلى .

(يعود الطواشي ومعه أقطاي وأبيك) .

السلطان : يا أعداء أنفسهم ، والله لولا شفاعة فخر الدين لكم وتحمله
التبعة عنكم لأمرت بشنقكم جميعا مثل الكنانيين ، فإياكم
إياكم أن تعودوا لمثلها .

فخر الدين : قد عفا مولانا السلطان-عنا جميعا . وسأعلن في الناس أنها
كانت زلة مني وأنا أني أنا المسئول عنها وحدي ، فلينس كل
منا ما كان ولنقف لعدونا وقفة رجل واحد .

السلطان : أجل عليكم أن تمحوا عن أنفسكم عار دمياط .

أقطاي : ومن يكون قائدنا يا خوند ؟

السلطان : قطع الله لسانك ! من يكون قائدكم إلا الأمير فخر الدين ؟
وهل عندنا قائد غيره ؟

أبيك : يا مولانا

السلطان : (محتدا) لا اعتراض ولا كلام ، والله الذي لا إله إلا هو
لئن خرجتم على طاعته مرة أخرى بحق أو بباطل لأفعلن بكم
ما فعلت بالكنانيين . (تدخل ناعسة حاملة قدحا فتناوله
للسلطان ويظهر أحمد على الباب) .

ناعسة : دواؤك يا مولاي قد حل ميعاده .

السلطان : (يتنهد ثم يشرب ما في القدح) قد حل إذن ميعاد صلاة
الظهر .

ناعسة : قد جهزنا وضوءك يا مولاي .

السلطان : أين ابن عمك (تومى ناعسة لأحمد فيحضر)
انتظروني حتى أصلي الظهر (يعتمد على ذراعي أحمد

وناعسة ويتوجه صوب الباب حتى يخرج) .

أقطاي : (في ثورة مكظومة) اليوم يشنق الكنانيين وغدا يشنقنا .

أييك : قد عفا عنا يا أقطاي .

أقطاي : عفا عنا ولم يرثنا . صدق فخر الدين ولم يصدقنا .

فخر الدين : إني سأعلن في الناس أنني أنا المسئول عن تلك الزلّة وحدي .

أقطاي : لكنه هو لن يغفرها لنا أبداً وسينفذ فينا فتوى شيخ الإسلام ذات يوم كما نفذها في الكنانيين .

فخر الدين : كلا يا فارس الدين لن يفعل ذلك أبداً .

أقطاي : أنت لن يمسك بسوء لأنك أثير عنده ، أما نحن ..

فخر الدين : خذوا عهداً مني لئن أراد بكم سوءاً لأكونن معكم عليه .

أييك : حقاً يا فخر الدين ؟

فخر الدين : وحرمة المصحف الشريف .

أقطاي : (لفخر الدين) ما دمت هكذا معنا قلباً وقالبا فلم لا نريج

أنفسنا منه اليوم ونريجه هو من علته وآلامه ؟ إننا لا نستطيع

أن نقاتل العدو ونحن مهددون بالقتل في كل لحظة .

(ينظر بعضهم إلى بعض في وجوم) .

أييك : ماذا ترى يا فخر الدين ؟

فخر الدين : إن قتلنا سلطاننا أطمعنا الفرنج فينا فلن تقوم لنا قائمة .

ولكن اصبروا عليه فهو على شفا وإنه لهامة اليوم أو غد فإن

مات فقد كفيتم أمره وإلا فهو بين أيديكم .

جمال الدين : لقد أشار عليكم فخر الدين بالرأى الصائب .

- أقطاي : هذا إن كان فخر الدين صادقا فيما قال .
- فخر الدين : قد حلفت بحرمة المصحف الشريف يا أقطاي فماذا تريد مني أن أصنع بعد لكي تصدقني ؟ لماذا لا تثق بي كما أثق بك ؟
- أقطاي : لا أستطيع أن أثق برجل يطمع في الملك بعد السلطان .
- فخر الدين : إن صح ما تقول كان ذلك أحرى أن تثق بي كما أشرت به عليكم .
- أقطاي : لا تحاول أن تخدعنا يا فخر الدين فإننا نعلم أنه قد عرض عليك ولاية الأمر من بعده .
- فخر الدين : ولا تعلمون أنني رفضت ؟
- أقطاي : إنما رفضت لعلمك أننا لا نقبل سلطانا من غير آل أيوب .
- فخر الدين : ليكن السبب ما يكون فحسبكم أنني رفضت .
- أقطاي : إنك تجند عامة الشعب لتضربنا بهم غدا إذا أبينا أن نقبل ولايتك .
- فخر الدين : لقد ذهب بك سوء الظن إلى مدى بعيد .
- أقطاي : ليس هذا ظني وحدي بل ظن الجميع . يا عز الدين لماذا لا تتكلم ؟
- أيبك : أجل يا فخر الدين هذا ما يظنه الجميع بك .
- جمال الدين : هذا صحيح .
- فخر الدين : ويحكم يا قوم . الفرنج يغزوننا بجيوش تفوق عساكرنا عددا وعدة ليقهروا قلعة الإسلام الكبرى في مصر فتسقط قلاعها الأخرى في أيديهم قلعة بعد قلعة ثم تنكرون عليّ أن أستعين بالمطوعة من عامة الشعب ليكونوا رداء لكم ويدافعوا عن

بلادهم ودينهم كما تدافعون؟

أقطاي : نحن جنود الدولة لا نقبل أن تسوى بيننا وبين هؤلاء الحراشفة.

فخر الدين : هؤلاء الذين تسميهم حراشفة هم أهل البلاد وقد خرجوا يجاهدون في سبيل الله دفاعا عن وطنهم ودينهم محتسبين متطوعين لا يأخذون رزقا من السلطان ولا يتغنون أجرا منه ولا يطمعون في منصب أو جاه . أفتبغون أن أغمط فضلهم وهم يعاونوننا في القيام بواجبنا الذي نأكل أرزاقنا من أموالهم عليه؟

جمال الدين : صه ها هو ذا السلطان قد عاد .

(يدخل السلطان فيسود بينهم الصمت) .

السلطان : لقد وقع المحذور فعلينا الآن أن نواجهه بما بقى عندنا من إخلاص وأمانة لهذه الأمة التي نعيش في بلادها ولهذا الدين الذي أكرمنا الله بالانتساب إليه . فماذا عندكم؟

فخر الدين : أرى قبل كل شيء يا مولاي أن تُرسل كتب إلى العاصمة وإلى سائر المدن الكبرى لاستنفار الناس للجهاد في سبيل الله لدفع الخطر العظيم .

السلطان : هذا واجب . أبلغ كاتب الإنشاء يا جمال الدين أن يعد كتباً بليغة بهذا المعنى لتقرأ على المسلمين من منابر الجوامع وكتبا أخرى مناسبة للمقام لتقرأ على المسيحيين في الكنائس .

جمال الدين : سمعاً يا مولاي .

السلطان : وماذا بعد؟

أقطاي : أرى يا خوند أن نعاود المسير إلى دمياط بعدد أكبر من عددنا الأول فما كان في حسابنا أن الفرنج سيأتون بكل هذا العدد الضخم .

فخر الدين : هذا رأى لا أوافق عليه فالفرنج لا بد قد احتلوا مدينة دمياط وسيحصنونها فوق تحصينها الأول فلا سبيل إلى غزوها . ولكن ننتظر حتى يخرجوا منها فإن هدفهم ليس دمياط بل القاهرة . وحينئذ نقاتلهم .. في العراء على حد بيننا وبينهم سواء . وأرى كذلك أن ينتقل السلطان إلى المنصورة فنحصنها ونجعلها خط الدفاع الأول .

أقطاي : كلا لا نرضى أبدا أن ننتظر حتى يهاجمونا هنا في أشمون أو في المنصورة ، هذا جبن وتخاذل .

فخر الدين : أنا أعلم أنكم شجعان أشاوس ولكن الشجاعة وحدها لا تغنى شيئا وهذا الشاعر أبو الطيب يقول :
الرأى قبل شجاعة الشجعان

هو أول وهى المحل الثانى

أقطاي : (فى لهجة ذات معنى) ما للشعراء والحرب ؟ إن للشعر قوما وللحرب آخرين !

فخر الدين : من الشعراء يا أقطاي من يعرف الحرب خيرا منك .

أقطاي : مثل من ؟

السلطان : (فى ضيق) كفى جدالا يا أقطاي . دعه يكمل حديثه .

فخر الدين : كانت دمياط فى أيدينا وكنا خليقين أن نكبدهم منها خسائر ولكنها صارت لهم اليوم فليس لنا أن نتيح لهم الفرصة

ليستظهروا علينا بمحسونهم ونحن مكشوفون في العراء .
ولكن علينا أن نستدرجهم حتى يخرجوا منها وسيخرجون
لا محالة فنوقع بهم ويكون لنا في المنصورة مثل ما كان لنا في
دمياط قبل سقوطها في أيديهم :

أيك : ولماذا لا نختار بلدا أقرب إلى دمياط من المنصورة حتى لا
ندعهم يتوغلون في أرضنا ؟

فخر الدين : لو كنت تعرف طبيعة الأرض يا عز الدين ما سألت هذا
السؤال . إن المنصورة تقع في طرف جزيرة دمياط التي
يحصرها بحر النيل والبحر الصغير ، فسوف نقيم
التحصينات ونعد المعدات على الشط الشرقي من البحر
الصغير فلا يستطيعون عبوره وينحصرون في الجزيرة .
وعلىنا من الآن أن نكثر من صنع السفن والشواني للوقوف
دون سفنهم تجاه المنصورة فلا تستطيع تجاوزها كذلك .
السلطان : بوركت يا فخر الدين .. لكأنا ترى الأرض أمامك
مصورة في خريطة .

فخر الدين : إني لأراها كذلك يا مولاي .

السلطان : فعلى بركة الله . استعدوا جميعا للرحيل إلى المنصورة وأعدوا
لى حراقة تحملنى وأهلى . إنى لأتفائل بهذه البلدة المنصورة
فقد نزل بها والدى الكامل رحمه الله وبقي فيها حتى
استرجع دمياط من أيديهم ، انصرفوا إن شئتم .

(يخرج أقطاي وأييك وجهال الدين) .

فخر الدين : (يدنو من السلطان فيقبل يده) شكرا يا مولاي على

ما صنعت (يمد يده من خلفه فيلقى بورقة في يد أحمد
فيخفيها أحمد في جيبه) .

السلطان : قد أوفيت أنا بعهدى فأوف أنت بعهدك .

فخر الدين : إن شاء الله يا مولاي (يخرج) .

(تدخل شجر الدر) .

شجر الدر : (في حنان) لقد أرهقوك اليوم يا سيدى . هلم استرح في

سريرك (تساعد على النهوض) .

السلطان : هل سمعت ما دار بيننا يا أم خليل ؟

شجر الدر : نعم سمعت كل شيء .

السلطان : آه لو قمت من علتى هذه ! (يمشى متحاملا بين أحمد

وناعسة وتتبعهم شجر الدر) .

شجر الدر : ستقوم يا سيدى منها بإذن الله .

(يخرج الأربعة) .

(يعود أحمد وناعسة) .

ناعسة : رأييت يا أحمد ؟ إن مولانا السلطان قد أحبك ووثق بك .

أحمد : لأنه يعزك يا ناعسة . لا يدعوني إلا يا ابن عم ناعسة .

ناعسة : (تضحك) وهو يعزنى لأنه يعز ستنا شجر الدر .

أحمد : أنت ابنة شجر الدر وأنا ابن عم ابنة شجر الدر .

(يتضحكان) والآن ائذنى لى أنصرف .

ناعسة : (تأخذ بيده) لا والله لا أدعك تنصرف حتى تشاركنى في

غداى اليوم .

(تظهر شجر الدر على الباب) .

أحمد : أعفيني يا ابنة عمي .

شجر الدر : أطعها يا أحمد .. لا تكسر خاطرها من اليوم .

ناعسة : (تبسم) تعال .. (تمضي به نحو الباب الثاني فيخرجان) .

(تمشى شجر الدر جيئة وذهابا في البهو كأنها مستغرقة في فكر عميق وتنظر بين حين وآخر إلى جهة الباب الثالث كأنها تتوقع مجيء قادم) (يدخل الطواشي جمال الدين فتومئ إليه فيدنو منها) .

شجر الدر : (بصوت خافض) تبا لكما يا خونة ! كيف أردتم أن تقتلوا مولاكم ؟

جمال الدين : معاذ الله يا مولاتي .

شجر الدر : لو لم ينهكم فخر الدين لفعلتموها ، قد سمعت كل شيء .

جمال الدين : حاش لله يا مولاتي أن نقتل ولي نعمتنا ، ولكننا قلنا ذلك أمام فخر الدين ليعرف أننا نستطيع أن نقتله هو إذا أردنا . ولقد

فطن الرجل لمرادنا فطفق يتودد إلينا خوفا على حياته .

شجر الدر : أما زلتم ساخطين على الرجل بعد كل ما أسدى إليكم من معروف ؟

جمال الدين : إنما يفعل كل هذا ريثما يتمكن من رقابنا يوم يخلف مولانا السلطان على العرش فلا يبقى منا على أحد .

شجر الدر : كلا يا جمال الدين . إن فخر الدين لشاعر رقيق الإحساس وليس بسفاك للدماء .

جمال الدين : إن لم يقتلنا يا مولاتي فربما يوقع بنا ما هو شر من القتل ؟

شجر الدر : ماذا تعنى ؟

جمال الدين : معذرة يا مولاتى ، ألسنا جميعا من ممالك السلطان ؟
فما يمنعنا أن يبيعنا كبيرنا وصغيرنا فى أسواق الرقيق ؟

شجر الدر : لا تنس ويلك أن مولاي السلطان قد أعتقنى فأنا زوجته وأم
ولده خليل .

جمال الدين : أنا لا أعنيك يا مولاتى وإنما أعنى جماعتنا من الممالك
البحرية . ونحن شيعتك وعبيد إحسانك ، بك نعتر وعليك
نعتمد وليس لنا سواك .

شجر الدر : (تنهد) وأنا أيضا ليس لى بعد السلطان سواكم .
جمال الدين : فلنحزم الأمر يا مولاتى من اليوم قبل أن يجرى للسلطان
شئ فنضيع .

شجر الدر : إن السلطان قد أوصانى أن أكتفم موته إذا مات خشية أن
يستكلب الفرنج علينا إذا سمعوا بموته . وقد كتب لى عشرة
آلاف إمضاء على بياض لأستعملها فى الأوامر والمراسيم
حتى لا يفطن أحد إلى موته . ولن يعرف السر غيرى وغيرك
وغير الطبيب أبى خليفة .

جمال الدين : هذا تدبير حكيم . ولكن يجب أن نستقدم ابنه توران شاه من
حصن كيفا . ليتولى الأمر بعده فنسد الطريق على كل
طامع .

شجر الدر : لكن السلطان لا يريد توران شاه ولا يكره أحدا فى الدنيا
مثله .

جمال الدين : حين يموت السلطان لا يبقى له أمر ولا نهى . ولن نبعث إلى

توران شاه إلا بعد أن يموت أبوه . وحيث إننا سنخفي موته
عن كل أحد فسنعلن في الناس أن السلطان قد رسم لابنه
توران شاه بالولاية من بعده وأنه يأمرهم أن يبايعوه على
ذلك فيسمع الجميع ويطيعون ، ولن يجرؤ فخر الدين
ولا غيره حينئذ أن يعارض .

شجر الدر : ألا تخشون من توران شاه فإنه أهوج سيء السيرة ؟
جمال الدين : إنه ابن مولانا على كل حال ، وسيعتمد علينا ، ويرعى
حقوقنا ، ولا شأن لنا بطيشه أو هوجه فضرر ذلك واقع
عليه .

شجر الدر : (تنهد) آه ليت خليلا ابني عاش حتى اليوم .
جمال الدين : إذن لوضعناه فوق رءوسنا ولما التمسنا سواه . ولكن
لا تبئسي يا مولاتي فسيكون توران شاه مطيعا لك كابنك
فإنه لن ينسى أنك ربيته في صغره .
شجر الدر : لكنه فارقنا منذ زمان فلا أدرى ماذا يكون شعوره نحوي
اليوم .

جمال الدين : ثقي يا مولاتي أن ولاءنا سيكون دائما لك . فإن لم يكن كما
تحبين أطعنا أمرك فيه .

شجر الدر : خير يا جمال الدين . اذهب لشأنك الآن واكتم هذا
الحديث .

جمال الدين : اطمئني . (يخرج) .

شجر الدر : (تتوجه نحو الباب الأول) لعله استيقظ .

(تخرج) . (يدخل أحمد وناعسة) .

(دار ابن لقمان)

ناعسة : (تشييعه إلى الباب) متى تعود إلينا يا أحمد ؟

أحمد : قريبا إن شاء الله .

ناعسة : سلم لي على خالتي أم أحمد .

(تدخل شجر الدر) .

شجر الدر : إلى أين يا أحمد ؟

أحمد : سأصرف يا مولاتي فقد أطلت المكث .

شجر الدر : (بلهجة ذات معنى) إن ذهبت إلى الأمير فخر الدين قل له

بينك وبينه : شجر الدر تسلم عليك وتقول لك خذ حذرك

من أمراء المماليك .

أحمد : سأفعل يا مولاتي .. أنا الليلة ذاهب إليه (يتوجه نحو الباب

للخروج) .

شجر الدر : (تحرك رأسها في رضى) مع السلامة .

(ستار)

المشهد الثانى

المنظر : بهو واسع فى قصر السلطان بدمياط الذى نزل به الملك
لويس التاسع لما احتل جنوده المدينة .

فى أقصى اليمين باب يودى إلى داخل القصر وفى أدناه
شباك يطل على فناء القصر . وفى أدنى اليسار باب يودى إلى
خارج القصر وإلى فناءه كذلك .

كرسيان فخمان فى الصدر . وعلى الجانبين الأيمن
والأيسر أريكتان وحوهما مقاعد مبطنة بالجلد الملون .
(الوقت ضحى) .

يرفع الستار فنرى الملكة مرجريت وأختها جالستين على
الأريكة اليمنى وهما تتناجيان :

مرجريت : أجل يا أختى كأنما ارتكبت ذنبا فى حقها إذ تزوجت
الملك . بقيت تحقد على حتى اليوم إن لويس اختارنى أنا
ولم يخترها هى كأنما كان فى وسعى أن أقول له : لا تتزوجنى
وتزوج چان دى تولوز .

بياتريس : (تنظر جهة الباب الأيسر) صه ! ها هى ذى قد أقبلت !
(تقوم من الأريكة وتجلس على مقعد من المقاعد)
(تدخل چان) .

- چان : بونچور يا صاحبة الجلالة .
- مرجريت : بونچور كونتيس أنجو .
- بياتريس : بونچور كونتيس بواتيه .
- مرجريت : (تشير إلى مقعد أمامها) تفضلي شاركينا في الحديث ..
- لا عمل لنا هنا غير الحديث .
- چان : (تجلس) شكرا يا صاحبة الجلالة .. لكن أين زوجك الملك ؟
- مرجريت : أين يوجد يوم الأحد إلا في الكنيسة ، كنيسة مريم العذراء ؟
- بياتريس : من أول ما طلع الصباح .
- چان : لعله يدعو لنا بالنصر على هؤلاء الكفار .
- مرجريت : ما أحسب الله يقبل دعاءه .
- چان : لماذا يا صاحبة الجلالة ؟ إنه لتقى مؤمن ، إنه قديس .
- مرجريت : (في سخرية) لأنه يدعو في كنيسة أصلها جامع للمسلمين .
- چان : وأين تريدينه يصلي ؟ جميع الكنائس الموجودة هنا أصلها مساجد .
- مرجريت : كلا بل توجد هنا كنائس أصلية .
- چان : صحيح ؟
- الأختان : نعم .
- چان : عجباً هل يسمح هؤلاء الكفار بأن تقوم بينهم كنيسة للمسيح ؟

مرجريت : بعض الكنائس في هذه البلاد أقدم من كنائس روما نفسها .
ألا تعرفين هذه الحقيقة التاريخية ؟

چان : بلى أعرف هذه الحقيقة ، ولكنى كنت أظن تلك الكنائس
قد هدمت جميعا أو حولت إلى مساجد .

مرجريت : المسلمون يا كونتس بواتيه أوسع أفقا منا وأكثر تسامحا مع
من لا يدين بدينهم .

چان : هذا لأن دينهم دين باطل وديننا هو الدين الصحيح ، فلا
يجوز أن نسمح للدين الباطل أن يقوم في بلادنا . أما هم
فيجب عليهم أن يسمحوا للدين الصحيح أن يقوم في
بلادهم .

مرجريت : لا لوم عليك فقد تلقنت هذا من رجال ديننا المتعصبين
الذين ينعنون المسلمين بالكفر .

چان : ويحك يا صاحبة الجلالة ، أليس المسلمون كفارا ؟

مرجريت : الكافر يا كونتيس بواتيه هر من يكفر بالسيد المسيح ،
وهؤلاء يؤمنون به ويققدسونه ، لا فرق بينه وبين نبهم
محمد .

چان : هذا هو عين الكفر ! كيف يسوون بين محمد والمسيح ؟

مرجريت : بل هذا غاية التسامح وسعة الأفق ، ويقابله عندنا التعصب
والجهل والغباوة .

چان : (فى نبث) هل أفهم من هذا أن زوجك الملك غبى
عندك ؟

مرجريت : كل من يحمل هذه العقلية فهو غبى .

چان : كان ينبغي يا صاحبة الجلالة لو تزوجت الإمبراطور
فردريك الثانى .

مرجريت : (فى تجاهل) لماذا ؟

چان : لأنه يجب هؤلاء مثلك ويتشيع لهم ، حتى طرده البابا من
كنيسة الرب .

مرجريت : هل قرأت ما كتبه الإمبراطور عنهم ؟

چان : لا ولا أود أن أقرأه .

مرجريت : إذن فليس لك أن تتهجمى عليه .

چان : وأنت قرأته يا صاحبة الجلالة ؟

مرجريت : نعم . هو الذى نور عقلى وهدانى إلى الحقيقة قبل أن أشهدها
بعينى .

چان : (بعد صمت يسير وبلهجة ذات معنى) إني لأعجب

لصاحبة الجلالة وعندها مشاغل كثيرة ، كيف تجد متسعا
من الوقت للقراءة ؟

بياتريس : لا تنسى يا كونتيس بواتيه أن أختى كان عندها فى الأعوام
الأولى من زواجها فراغ واسع .

چان : (ساخرة) صحيح .. كان الملك لا يلقاها إلا فى النادر ،

وإذا أراد أن يواصلها تسلق إلى شرفتها تحت ستر الليل على
طريقة العشاق المغامرين !

مرجريت : أمه هى التى كانت تضطره إلى ذلك . كانت بلانش تحول
بينه وبينى كأننى لست زوجته .

بياتريس : حتى لقد هم والدى حين بلغه ذلك أن يجرّد حملة لغزو

باريس وضمها إلى البروفانس.

چان : ترى ما الذى كان يدفع بلانش إلى ذلك وهى التى اختارتك بنفسها لابنها الملك ؟

بياتريس : هذا واضح لا يحتاج إلى بيان . كانت تخشى أن تنافسها أختى فى السيطرة عليه .

مرجريت : مع أننى وحياة العذراء ما حدثت نفسى بشيء من ذلك ، ولقد كنت يومئذ دون الثالثة عشرة .

چان : (تعود إلى سخريتها الخفية) إذن فقد كان لحمايك الفضل يا صاحبة الجلالة فى حشو رأسك الجميل بما فى بطون الكتب !

مرجريت : بل كان الفضل لوالدى يا كونتيس بواتيه ، إذ كان يحثنى دائما على توسيع ثقافتى بالقراءة . إن والدى رجل مثقف !

چان : لا حق له . لست دميمة حتى تكملى نقصك بكثرة الاطلاع .

مرجريت : (بلهجة ذات معنى) يا عزيزتى كونتيس بواتيه إنك تعلمين أن كثيرات كن يطمعن أن يتزوجن الملك فوق الاختيار على دون غيرى ، ولا ينبغى لمن كانت تطمع فى الجلوس على عرش فرنسا أن تكون جاهلة !

چان : الجهل يا صاحبة الجلالة ولا الهرطقة .

مرجريت : هكذا أهل الجهل والتعصب دائما يهتمون المستيرين بالكفر والهرطقة .

چان : يا صاحبة الجلالة إن فى كلامك هذا تعريضا بالبابا والملك .

بياتريس : ما هذا يا كونتيس بواتيه ؟ أتريدين أن تحرفي في كلام أختي ؟

مرجريت : دعها يا بياتريس تفسر كلامي كما تشاء فأنا لا أبالي .

چان : لا تبالين بزواجك الملك ؟

مرجريت : (محتدة) لا أبالي بأحد ! انقلي هذا إلى زوجي الملك إن شئت .

چان : (ببرود) كلا ليس من شيمتي الثيمة ، ثم إنك معذورة على كل حال .

مرجريت : ماذا تعنين ؟

چان : ما كان للملك أن يغار من فارسك الشاعر چان دى بوا فيقصيه عنك .

بياتريس : كونتس بواتيه يجب أن تزنى كلامك !

چان : أنا قلت الحقيقة ولم أقصد أى سوء .

مرجريت : أجل أنا حامية دى بوا وراعيته ، أقولها بملء فمى وعلى رءوس الأشهاد . لا تحسبيني أجبن عن الاعتراف بهذا الشرف .

چان : شرف ؟ !

بياتريس : أجل . سيخلدها في شعره الجميل إلى الأبد . يا ليت شاعرا مثله يشيد بمحاسنى ويتغزل فى !

چان : أنت أيضا ! إني لأحسدكن يا بنات البروفانس على جرأتكن .

مرجريت : نحن نشجع الشعراء العفيفين يا كونتس بواتيه ، ولكن لا نأذن للعشاق الماجنين أن يتسللوا إلى مخادعنا مثل بنات تولوز !

- چان : هذا غير صحيح يا صاحبة الجلالة . إن بنات تولوز
متدينات لا يتخلفن عن الكنيسة كل أحد .
- مرجريت : لكى يرحن ضمائرهن من الشعور بالإثم .
- چان : ماذا تقولين ؟ كيف تعكسين الأمور ؟
- مرجريت : أنا لا أعكس الأمور يا كونتس بواتيه . ما رأيك فى شقيق
زوجك الكونت دارتوا ؟
- چان : من أى ناحية ؟
- مرجريت : من ناحية سلوكه .
- چان : ماذا تريدین أن أقول فيه ؟
- بياتريس : قولى إنه يقضى لياليه كلها فى السكر والعريضة .
- چان : شاب غير متزوج يفعل ما يفعله الشباب .
- مرجريت : فهو وحده دون أخويه الذى يحرص على شهود الكنيسة مع
الملك !
- چان : (مبهوثة) ... ؟
- مرجريت : ثم ما رأيك فى مدام دى بارى ذات التقوى والصلاح ؟
- بياتريس : (ضاحكة) مدام دى بارى ! (ترسم يديها قرنين على
رأسها) .
- چان : لا حق لكما ... هذه قد تابت !
- مرجريت : تابت ؟
- بياتريس : على يدك أنت ؟
- چان : لا يجوز لنا أن نحاسبها على ماضيها .
- بياتريس : حاضرها ألعن من ماضيها .

- مرجريت : (مشجعة) لم يا أختي ؟
- بياتريس : ماضيها في نفسها وحاضرها في الأخريات !
- مرجريت : (مداعبة) ومستقبلها يا بياتريس ؟
- بياتريس : مستقبلها في الجحيم !
- چان : يا للإفك والبهتان ، لقد زرتها أنا في بيتها فلم أر شيئا مما يشيعون . وجدت الذين عندها يقرعون معها في الإنجيل .
- بياتريس : (في دعاية) حينما تصبحين من مريداتها الخلصات يا كونتس بواتيه ستطلعك على الأسرار . (تلتفت إلى مرجريت) لقد نبهتني اليوم يا أختي إلى أمر هام . إن رأيت زوجي يتردد على الكنيسة فسأعرف أنه بدأ يخدعني ! (تضحك الأختان وتكلف چان مشاركتهما في الضحك) .
- چان : نكتة ظريفة يا كونتس أنجو (بعد صمت يسير) أرجو ألا تسيئي فهم قصدي يا صاحبة الجلالة ، فقد قلت من الأول إن اللوم يقع في هذا على الملك لا عليك . كل يعلم أن چان دى بوا فارس حسن السيرة مستقيم .
- مرجريت : الحمد لله إذ شهدت له بذلك .
- چان : أنا لا أشهد إلا بالحق . إنه مسيحي طيب . ولكن الذي لا يستساغ منك يا صاحبة الجلالة هو ما تبدينه من الاهتمام بهذا الأسير المسلم المحبوس في الزنزانة تحت .
- بياتريس : أحمد ؟

- چان : نعم .
- مرجريت : وأى بأس فى ذلك يا كونتيس بواتيه ؟
- چان : زوجك الملك غيور كما تعلمين ، فرما يظن ظنا .
- مرجريت : ليظن ما يشاء .
- چان : ليس من الحكمة أن تثيرى ريبته دون داع . إن كان لا بد من ذلك فليكن من وراء زوجك .
- مرجريت : يجب أن تعلمى يا كونتيس بواتيه أنى لا أخفى شيئا عن زوجى ، ولا أعمل شيئا من وراء ظهره .
- چان : ترى أهو أيضا شاعر مثل چان دى بوا ؟
- مرجريت : لا تسخرى يا كونتيس بواتيه ، إني إنما أعطف عليه لأن له مأساة !
- چان : يُحب ابنة عمه الأسيرة فى قصر السلطان ... ما أشبه زعمه هذا بقصص ألف ليلة وليلة !
- مرجريت : نحن الآن فى بلاد ألف ليلة وليلة .
- بياتريس : صحيح .. هذه بلاد ألف ليلة وليلة .
- چان : لكن ما شأننا نحن به وبابنة عمه ؟
- مرجريت : إنه إنسان مثلنا يا كونتيس بواتيه .
- چان : مثلنا ؟
- مرجريت : بل هو خير منا .. إنسان يحب ويتألم !
- بياتريس : مسكين والله يستحق العطف .
- چان : أنت أيضا يا كونتيس أنجوى ؟
- بياتريس : صدقيني يا كونتيس بواتيه . إنه شاب مهذب جميل .

چان : جميل ؟

بياتريس : حقا جميل ، عيناه السوداوان الفياضتان بالحياة .

چان : هذا من الكحل الذى يستعملونه هنا كما سمعت .

مرجريت : من أين له الكحل وهو حبيس عندنا منذ ثلاثة أسابيع ؟

بياتريس : وشعره الأسود الفاحم ، إياك أن تقولى أيضا إنه يصبغ شعره .

چان : (كأنها بدأت ترتاح لما تسمع من وصف الرجل)

لا .. ما أظن الصباغة تبقى ثلاثة أسابيع .

بياتريس : وفمه الحلو وشفته الغليظتان .

چان : (فى اهتمام) هيه وماذا بعد ؟

بياتريس : وجيده الأتلع الساحر بلون البرونز ! و صدره الذى يشبه صدر الأسد .

چان : (فى لهجة ناعمة) يا كونتس أنجوا ! بحياة العذراء

لا أستطيع أن أسمع أكثر من هذا ! (تضحك ، وتضحك

معها بياتريس بينما تختلس مرجريت النظر إلى چان فى

اشمئزاز) .

بياتريس : تحبين يا كونتس هواتيه أن تريه ؟

چان : لا بأس ! ليس عندنا الآن من رجالنا أحد . هلمى انزلى معنا

يا صاحبة الجلالة لتسلى بالحديث معه .

مرجريت : معذرة . أنا لا أحب أن أتسلى برجل منكوب .

چان : (تضع يدها فى يد بياتريس) هلمى بنا .. لعل صاحبة الجلالة

لا تحب أن تنزل إليه إلا وحدها . (تتوجه نحو الباب الأيسر) .

بياتريس : (تجذبها نحو الباب الأيمن) من هنا ، دعينا نزل من الدرج الخلفى حتى لا يرانا أحد . (تتصاحكان وتخرجان من الباب الأيمن) .

مرجريت : (تتمم) يا لى منك ! (تنهض إلى الشباك فتطلع) أين أنت الآن يا فارسى الجميل ؟ يا شاعرى المجيد ، لا تبئس ، لقد جعلنى زوجى الغيور أزداد تعلقا بك وحنينا إليك . غبت عن عينى يا جان دى بوا ولكن نزلت فى قلبى ولن تخرج منه أبدا . ستبقى فى قلبى إلى الأبد . (تخرج ورقة من بين ثيابها) هذه قصيدتك الأخيرة أحتفظ بها بين سحرى ونحرى وأرتلها كالمزامير أو كنشيد الأناشيد . (تسمع وقع أقدام فتخفى الورقة بين ثيابها) (يدخل الملك لويس من الباب الأيسر فينظر إليها فى رية) .

مرجريت : رجعت يا سيدى من الكنيسة ؟

لويس : نعم .. من ذا كان عندك هنا يا مرجريت ؟

مرجريت : (فى غيظ مكظوم) چان يا سيدى .. چان دى بوا .

لويس : (يحمر وجهه غضبا) چان دى بوا ! ماذا جاء به ؟ إنه

مكلف بحراسة الخفر الأمامى للمدينة .. كيف حضر بغير

إذن ؟ كيف ترك واجبه الخطير ؟ هذا الخائن !

مرجريت : إن دى بوا يا سيدى أكبر وأنبل من أن يخون واجبه .

لويس : ألم يحضر إلى هنا ؟

مرجريت : لا يا سيدى .. لم يحضر .

- لويس : لكنك قلت الساعة إنه كان هنا عندك .
- مرجريت : لأنك كنت تستفهمنى وفى ذهنك شىء واحد هو چان دى بوا .
- لويس : كلا كلا .. ما كان فى ذهنى أحد .
- مرجريت : لا تكذب يا سيدى فالله مطلع على سريرتك ، وأنت تقى متدين والدين ينهى عن الكذب .
- لويس : (يلين لهجته) لا تؤاخذينى يا مرجريت إنى محب ، والمحب غيور .
- مرجريت : لو كنت تحبنى حقا ما اتهمتنى .
- لويس : حاشاى يا حبيبتى .
- مرجريت : لا تكذب ثانية . هذا واضح فى عينيك .
- لويس : (يثور فى وجهها فجأة) أجل أنا أتهمك ، ومن حقى أن أتهمك مادام هذا الشيطان اللعين يتردد عليك .
- مرجريت : (فى ثبات) ما هو بشيطان ولا لعين وإنما هو فارس وشاعر .
- لويس : (بلهجة الواعظ الدينى) الشيطان يا ابنة آدم كثيرا ما يظهر فى صورة رجل جميل !
- مرجريت : انظر فى المرآة يا صاحب الجلالة لتعلم أنك أجمل منه .
- لويس : إذن لماذا تخصينه بحبك وهواك ؟
- مرجريت : إنما أنا أرعاه وأعطف عليه . أنا راعيته وحاميته جريا على العادة المتبعة .
- لويس : هذه عادة من عمل الشيطان .

مرجريت : هذا تقليد شائع من تقاليد الفروسية ، ولم أتبعه أنا وحدي فهو موجود في أسرتك .

لويس : كذبت . هاتان سلفتاك چان وبياتريس لا أحد منهما تتبع هذا النهج الذميم .

مرجريت : أختي بياتريس لا تزال عروسا صغيرة . أما چان فزوجها دائما معها لا يشغل عنها بشيء .

لويس : وماذا يشغلني أنا عنك ؟

مرجريت : أمك والكنيسة !

لويس : أمي والكنيسة ؟

مرجريت : أجل . حين كنت دون الحادية والعشرين كانت أمك تحول بينك وبينى حتى كنت تضطر إلى التسلق إلى حجرتي بالليل .. أنسيت ذلك ؟ فلما بلغت سن الرشد ولم يعد في وسع أمك أن تتحكم في علاقتنا الزوجية شغلت نفسك بالكنيسة عني ، حتى هممت ذات يوم أن تخلع التاج وتتخذ إكليل الأكليروس كأنما أنت قسيس لا ملك .

لويس : أمن أجل هذا اتخذت لك خليلا دون سلفتيك ؟

مرجريت : نعم . ولو أتيح لهما أن ترعيا مثل هذا الفارس الشاعر لما ترددتا في قبول هذا الشرف .

لويس : شرف ؟ الخطيئة عندك شرف ؟

مرجريت : (محتدة) لا تقل الخطيئة من فضلك ! فإن ما بينى وبينها ما بين السماء والأرض .

لويس : أنا أعتبرها خطيئة ، والدين يعتبرها خطيئة .

مرجريت : إذن فما تقول في جدة أمك إليانور داكويتين التي زفت إلى

هنرى الثانى ملك إنجلترا ، فأبت إلا أن يتبعها شاعرها المختار

برناردى فتتادورن إلى بلاطها هناك ؟

لويس : لا شأن لى بجدة أُمى هذه ولا بشاعرها .

مرجريت : وما تقول فى أم أمك مارى دى شيمانيا التى اتخذت لها

شاعرين مختارين لا واحدا : كريتيان دى تروى وأندريا

كابلانوس ؟

لويس : ولا شأن لى بهذه كذلك .

مرجريت : إذن فما تقول فى أمك بلانش دى كاستى ؟ ألم تسمع بما بينها

وبين شاعرها تيوبولد دى شيمانيا ؟

لويس : مرجريت !

مرجريت : أليس من حقى أنا مرجريت دى بروفانس التى أفوق

أمهاتك هؤلاء أرومة وشرف محتد ، أن يكون لى شاعر

يتغنى بمحاسنى وأسبغ عليه عطفى ورعايتى ؟

لويس : أنا لا أسمح لك يا مرجريت أن تتعرضى لوالدتى فهى أشرف

منك !

مرجريت : لا تغضب يا صاحب الجلالة . أنا لم أتفوه فيها بكلمة سوء .

أنا لم أقل ما يقول الناس عنها إنها تجاوزت مع شاعرها حدود

الرعاية والحماية إلى شىء آخر !

لويس : (غاضبا) مرجريت !

مرجريت : (ماضية دون مبالاة) ولم أقل ما يقولون عنها أنها تواطأت

معه على قتل أبيك لويس الثامن بالسّم !

- لويس : (يكلم فمها بيده) اسكتى اسكتى يا ملعونة !
- مرجريت : الله يعلم وحده من هى التى تستحق هذا اللقب .
- لويس : (يفقد سيطرته على نفسه فيتهاوى على الأريكة وهو يزفر فى صعوبة ويتمتم) . وحرمة الصليب وكرامة السيد المسيح لأتخلصن من هذا الشيطان اللعين .
- مرجريت : علام القسم بعد ؟ لقد أردت به ذلك حين وضعته فى ذلك المخفر البعيد ، عرضة لهجمات العامة والعربان الذين ينقضون على معسكراتك بالليل ويقتلون رجالك أو يتخطفونهم فيسرقونهم أسرى إلى القاهرة .
- لويس : كلا لا يكفينى ذلك . لأقتله بيدي .
- مرجريت : فى وسعك يا ملك فرنسا أن تفعل ذلك ، ولكن ثق أنك ستفقد حبيبى واحترامى إلى الأبد .
- لويس : (ينشج باكيا فى صوت كظيم وقد دفن وجهه بين يديه وهو يتمتم) الملعونة ! قتلت أبى الملك الطيب ولوثت شرفه وشرفى من بعده . كل هذا من أجل نزوة بهيمية مع شاعر داعر من شعراء التروبادور ! ثم تخادع الله وتخادع الناس فتتمسح بالكنيسة وتتظاهر بالدين والتقوى وتقول لى : يا لويس أهون على أن أشهد مصرعك بعينى رأسى من أن ترتكب خطيئة ! هذا فراق بينى وبينك يا ملعونة يا ابنة قشتالة . لن ترينى ولن أراك . قسما بطهارة مريم العذراء لن أعود إلى فرنسا حتى يواريك التراب . واشقائى ! أنا أشقى الناس ! أنا أشقى الناس !

مرجريت : (تدنو منه مواسية) سامحنى يا مولاي فيما سبيت لك من ألم .

لويس : لا عليك ... أنت إنما نكأت الجرح ، ولكن هى التى جرحت .

مرجريت : (تجفف دمه بمنديلها) ما كنت أعلم يا حبيبى أنك تنطوى على هذا الألم الدفين . كنت أظن أن قلبك قد من صخر فلا يحس ولا يتألم .

لويس : إنما أتجلد يا حبيبتى لأن منصبى يقتضى ذلك . ولأنى ... ولأنى ما زلت أحبها يا مرجريت !

مرجريت : لا غرو يا سيدى فهى والدتك .

لويس : يا ليتها لم تكن كذلك . لقد جعلتنى أكره نفسى حتى لأتمنى كلما خضت معركة من المعارك لو أقتل فيها فأستريح !

مرجريت : (قرئت على كتفه مواسية) رفقا بنفسك يا سيدى ... لا ينبغي أن تأسى إلى هذا الحد .

لويس : كيف لا يا مرجريت وقد جعلتنى أشعر بالدنس يجرى فى عروقى ، ولا أدرى كيف أتطهر منه إلا أن يتولانى الله الذى طهر المسيح من رجس الشيطان .

مرجريت : (تقبله فى حنان والدمع يترقرق فى عينيها) سيتولاك الله يا لويس . سيتولاك الله .

لويس : آمين (ينظر إليها فى اغتباط) إنك لتحبيننى يا مرجريت .

مرجريت : الله يشهد أننى ما أحبيت سواك .

لويس : فما يمنعك يا حبيبتى أن تحبيننى إلى ما أريد ؟

- مرجريت : ماذا تريد ؟
- لويس : عدينى أنك لن تقابليه بعد اليوم .
- مرجريت : كلا لا أستطيع . إنك اتهمتنى من قبل فى صلتى به ، فإن أجبتك اليوم إلى طلبك هذا فكأننى اعترفت بما اتهمتنى به .
- لويس : صدقيني يا مرجريت . أنا واثق من شرفك ، ولكنى لا أريد لأولادى أن يعانون مثل ما عانيت .
- مرجريت : لو كنت تثق بشرفى حقا ما قلت هذا .
- لويس : (يعود إلى غضبه الأول) ولو كنت تحبيننى حقا لما رفضت لى هذا الطلب .
- مرجريت : هذا طلب لا سبيل إليه .
- لويس : إذن فسأعرف ماذا أفعل !
- مرجريت : افعل ما بدا لك !
- لويس : ما كان ينبغى أن آخذك معى فى هذه الحملة . هذه حملة مقدسة لا ينبغى أن يشترك فيها إلا من يؤمن برسالتها ويؤدى فيها واجبه على ما يرضى السيد المسيح .
- مرجريت : لو صبح ما تقول لما اشترك فيها أحد ممن جاءوا معك .
- لويس : ماذا تعنين ؟
- مرجريت : أتظن هؤلاء البارونات والكونتات انضموا إليك حبا فى المسيح ؟ إنما جاءوا طمعا فى المغانم والأسلاب . ها هم أولاء قد استحالوا إلى وحوش بشرية لا عمل لها إلا السكر والعريضة واختطاف النساء من القرى المجاورة ، وارتكاب ما يضح منه المسيح . (يصمت لويس قليلا ويعتريه وجوم)

(يدخل الكونت دارتوا ويلحظ هذا الوجوم من الملك
والملكة فيتراجع لينسحب) .

دارتوا : معذرة يا سيدى .
لويس : (يصيح به فى حدة) ادخل يا روبير ، لى حديث معك .
دارتوا : (يتقدم فى أدب) عفوا يا سيدى إذ دخلت دون
استئذان .

لويس : اجلس (يجلس دارتوا) اسمع يا روبير .
دارتوا : نعم يا سيدى .
لويس : يجب أن تنهه من طيشك ومجونك . كلما عاتبت أحدا على
شئ قال لى : كان الكونت دارتوا معنا . وملك ألا تعرف
أننا فى حملة مقدسة ؟

دارتوا : بلى يا سيدى ولكننا فى بلاد الكفار ، ولنا أن نصنع فيها
مانشاء ليس علينا جناح .
لويس : من قال لك ذلك ؟ إن الخطيئة هى الخطيئة سواء ارتكبتها هنا
أو هناك .

دارتوا : لكنك يا سيدى قد أخذت عهدا من البابا أن يجب خطايا
جميع الذين يشتركون فى هذه الحملة .

لويس : يا جاهل .. الخطايا التى ارتكبتها فى الماضى لا التى
ترتكبونها أثناء الحملة . ويلكم ألا تعلمون أن هذه الخطايا
تغضب الرب علينا فلا ينصرنا على أعدائنا ؟

دارتوا : لا تؤاخذنى يا سيدى إن قلت لك إنك أنت المسئول عن
هذا كله . حبستنا خمسة شهور فى دمياط لا نعمل شيئا

- حتى كدنا ننسى الهدف الذى جئنا من أجله .
- لويس : (فى رضا) استعد الآن يا كونت دارتوا ، فقد آن لنا أن نتحرك بعد أن مات سلطانهم .
- دارتوا : لقد مات سلطانهم من زمن بعيد .
- لويس : لكن ما تيقنا موته إلا اليوم .
- دارتوا : قد أخبركم به أحمد منذ ثلاثة أسابيع ، وجاء يحرضكم على المبادرة بالهجوم قبل أن يلتئم شملهم فكذبتموه وقلتم إنه جاسوس .
- لويس : ما زلنا نظن أنه جاسوس . ألا يزعم لنا أنه يعمل خادما فى قصر السلطان ؟
- دارتوا : بلى .
- لويس : فكيف يعقل أن يخون سيده ؟
- دارتوا : إنه فى الحقيقة فلاح يربى النحل ويتجر فى العسل ، وإنما اشتغل خادما فى قصر السلطان ليكون قريبا من ابنة عمه المخطوبة له من الصغر عسى أن يتسنى له الهرب بها من القصر .
- لويس : لو كان ما زعمه صحيحا لما ترك القصر بعد أن مات غريمه السلطان .
- دارتوا : كان السلطان قد ضمها إلى جواريه ليتسراها ، ولكن الله بلأه بالمرض قبل أن يمسيها بسوء ، فلما هلك خشى عليها أحمد من ابنه الشاب الذى سيحضر من الخارج ليتولى العرش مكان أبيه . فلما أعياه الأمر جاء يستنصرنا لننقذها

له ، وعرض علينا أن يدلنا على الطريق ويقدم لنا كل عون
يقدر عليه ، أف يكون جزاؤه منا الحبس والاعتقال ؟

لويس : ما يدرينا ألا يكون اخترع هذه الحكاية ليستدرجنا إلى
كمين منصوب ؟

دارتوا : قد تبين لكم الآن صدقه فيما أخبر به من موت السلطان .

لويس : هذا صحيح ولكن الحكاية الأخرى لم يقم لنا عليها دليل .

مرجريت : (التي كانت تتابع الحديث عن أحمد باهتمام خاص)

يا سيدى لقد ظلمنا هذا الشاب المسكين . من أين له أن يقيم
لنا الدليل على سر كهذا لا يعلم به غير المقيمين في قصر
السلطان أو المترددين عليه ؟

لويس : إنك دائما تدافعين عنه يا مرجريت .

دارتوا : الحق معها يا سيدى . لقد أدركت من حديثه عن ابنة عمه
أنه صادق فيما يقول ، وأنه يستحق العطف .

لويس : النساء يا دارتوا دائما يسحرهن حديث الحب !

دارتوا : وأنا يا سيدى هل أنا امرأة ؟

(يتضحك الثلاثة) .

لويس : حاشاك ! سثبت في المعركة القادمة يا أخى أنك أكثر من
رجل .

دارتوا : ولكن متى يا سيدى ؟ متى نخوض هذه المعارك فقد طال
علينا الانتظار ؟

(يدخل بواتيه) .

لويس : ماذا وراءك يا كونت بواتيه ؟ هل من جديد ؟

بواتييه : نعم يا سيدى . حضر الساعة رسول من القائد فخر الدين
ومعه هذه الرسالة .

(يناوله رسالة مختومة) .

لويس : وأين تركت الرسول ؟

بواتييه : أسفل يا سيدى مع الكونت أنجو .

لويس : (يفض الرسالة ويناولها لدارتوا) اقرأها يا روبر .

دارتوا : عجباً .. رسالة من ثلاثة أسطر فقط .

لويس : اقرأها .

دارتوا : (يقرأ) إلى الملك لويس ملك الفرنج . سلام عليكم .

أرسل إليكم هذا مع مملوكى الأمين جوهر الفخرى
ليشافهكم بما أريد ، فاعتمدوا ما يقول . إمضاء : قائد
العساكر فخر الدين .

لويس : رسالة شفوية . على بالرسول يا كونت بواتييه ، وادع
الكونت أنجو معك .

(يخرج بواتييه) .

(تهم مرجريت بالانسحاب ، فينهض لويس ويستوقفها
فى لطف كأنه يريد أن يصالحها) .

لويس : إلى أين يا عزيزتى ؟

مرجريت : ربما لا مكان لى بينكم الساعة .

لويس : بل تبقين يا عزيزتى معنا لعل لك رأيا نستنير به . (يجلس

لويس على الكرسي الأيمن وتجلس مرجريت على الكرسي
الأيسر) .

دارتوا : أجل قد تبين لنا الآن يا صاحبة الجلالة أن رأيك في أحمد كان

هو الصواب . ترى ماذا يريد فخر الدين هذا ؟

لويس : الساعة نعرف .

(يدخل بواتيه وأنجو ومعهما جوهر الفخرى) .

جوهـر : سيدى الملك . إن قائد العساكر الأمير فخر الدين ابن شيخ

الشيوخ الذى انتهى إليه أمر البلاد بعد وفاة السلطان الملك

الصلاح أيوب ، يعرض عليكم حبا للسلام ورغبة في حقن

دماء الفريقين أن تجلوا بعساكركم عن أرض مصر ، وينزل

لكم عن بيت المقدس وعسقلان وطبرية .

لويس : هذا كل الرسالة ؟

جوهـر : نعم ، إلا أنه يطلب منكم سرعة الرد حتى يتمكن من إبرام

هذا الصلح الشريف معكم وتنفيذه قبل أن يقدم السلطان

الجديد توران شاه ، خشية ألا يوافق على هذا الصلح .

لويس : وأين هو السلطان الجديد ؟

جوهـر : سيحضر من ديار بكر في وقت قريب ليجلس على العرش

مكان أبيه .

لويس : وهل يملك فخر الدين أن يعقد معنا الصلح ؟

جوهـر : نعم . هو الحاكم الشرعى للبلاد إلى أن يجيء السلطان

الجديد .

دارتوا : (للويس) كلا يا سيدى لا ينبغي أن ...

مرجريت : (مقاطعة) ألا تريحون هذا الرسول أولا وتكرمون وفادته

ريثا يستقر الملك على القبول أو الرفض ؟

لويس : صدقت يا عزيزتى . خذه معك يا كونت بواتيه إلى دار الضيافة ، ومرهم بإكرامه وتوفير أسباب الراحة له ثم عد إلينا للمشورة .

بواتيه : سمعا يا سيدى . (يخرج ومعه الرسول) .

لويس : (لدارتوا) ويلك يا روبير . أنت دائما متسرع أهوج . كيف تريد أن تبدى رأيك والرسول يسمع ؟

دارتوا : لم لا يا سيدى ؟ نحن أقوياء ولا نخاف من أحد .

لويس : بل نخاف على سرنا أن يطلع عدونا عليه .

دارتوا : هو الآن ليس بيننا . يا سيدى .. هذا الصلح الذى عرضوه يدل ..

لويس : (مقاطعا) انتظر قليلا حتى يعود بواتيه .

(يعود بواتيه فيأخذ مكانه بينهم) .

لويس : (لدارتوا) الآن قل ما عندك .

دارتوا : كنت أريد أن أقول إن هذا الصلح الذى عرضوه يدل على أنهم فى حالة ضعف واضطراب ، فعلينا أن نرفضه ونبادر بالهجوم قبل أن يحضر سلطانهم الجديد .

بواتيه : أما أنا فأرى أن نقبل هذا الصلح فى الحال ، فإنه يحقق لنا الهدف العظيم الذى جئنا من أجله وهو تحرير بيت المقدس بدون قتال ولا خسارة أرواح . بل يحقق لنا أكثر من ذلك إذ يضم إلينا طبرية وعسقلان .

دارتوا : ولكننا لا نكتفى اليوم بهذا . يجب علينا أن نقضى على بابل الجديدة ، فهى معقل الكفر فى الشرق كله بل فى العالم أجمع .

بواتيه : إن أخى الكونت دارتوا يظن الاستيلاء على القاهرة نزهة ممتعة .

دارتوا : وأنت يا كونت بواتيه يبدو أنك لا تريد أن تشهد ولا معركة واحدة . تأخرت عنا بفرنسا سنة كاملة إلى أن تم لنا احتلال دمياط . وأنت اليوم تستعجلنا على الرجوع إلى فرنسا قبل أن تقع عينك على وجه عدو واحد .

لويس : روبر لا تخرج عن الموضوع ولا تخرج شعور أخيك . ماتخلف أخوك عبثا بل كان يحشد لنا الرجال ويجمع الذخائر والمؤن .

بواتيه : لا تثريب عليه يا سيدى فإنما دفعته الحماسة إلى ما قال . (لدارتوا) ولكن القاهرة يا أخى ، أو بابل الجديدة كما تسميها ، من المدن المنيعه ، ومن دونها طريق طويل تعترضنا فيه قنوات النيل وترعه ، وسيقاتلنا العدو فى كل شبر منه ، فانظر ماذا يكبدنا ذلك من الخسائر فى الأرواح والأموال . دارتوا : هذا ما نريد . وما جئنا إلا لنقاتل هؤلاء الكفار لإعلاء كلمة المسيح .

بواتيه : إن كنا نريد إعلاء كلمة المسيح فهذا وطن المسيح قد عرض علينا عفوا وصفوا ، فلا يجوز لنا أن نرفضه طمعا فى الاستيلاء على بلاد أخرى فى حرب لا نعلم لمن تكون الغلبة فيها . ومن المحتمل أن نهزم فيها فلا تقوم لكلمة المسيح قائمة فى هذا الشرق .

لويس : وأنت يا كونت أنجو ما رأيك ؟

أنجو

: إني مع الكونت دارتوا في رفض الصلح . فإننا قد نحصل على بيت المقدس والبلدين الآخرين إن قبلناه . ولكن هؤلاء العرب سيستردون تلك البلاد من أيدينا بعد حين ما بقيت هذه القلعة التي يسميها الكونت دارتوا بابل الجديدة . لا أمان لنا يا سيدى في الشرق ، ولا أمان لإمارتنا الصليبية فيه إلا إذا سحقنا مصر ومحونا عاصمتها العتيدة من الوجود .

لويس

: بوركت . هذا عين الحق . ومن أجل هذا لم نوجه حملتنا المقدسة إلى سوريا بل إلى مصر . إني أريد أن أصفى هذا الشرق كله للصليب فلا يحتاج من بعدى إلى حملة صليبية جديدة !

دارتوا

: (يهتف في حماسة) حييت يا حامى الصليب .

أنجو

: ولكنى ما زلت يا سيدى مصرا على رأيى في غزو القاهرة من طريق الإسكندرية لا من طريق دمياط .

دارتوا

: ويلك . ألهبت النار ثم سكبت عليها الماء : كيف نتخلى عن دمياط وقد سقطت في أيدينا ؟

أنجو

: لن نتخلى عن دمياط . سترك فيها حامية كافية وننقض بأسطولنا على الإسكندرية ، فنغلق عليهم المسالك البحرية ونضمن سلامة السفن القادمة لنا من أوروبا ومن إماراتنا الصليبية بسوريا . ثم نزحف منها إلى القاهرة عن طريق الصحراء حيث لا تقاومنا المدن والقرى ، ولا تعترضنا القنوات والترع ، ولا نتعرض لإغراقنا بالماء إذا كسروا السدود كما وقع من قبلنا لجان دى برين إذ سلك طريق

دمياط فحاقت بجيوشه تلك الهزيمة المروعة !

دارتوا : إنك تذكرنا دائما بهزيمة چان دى برين كأنما تتمنى أن يحقق بنا مصيره . وتنسى أننا اليوم يقودنا ملك مسيحي تقى مؤمن لا يمكن أن يخذله الله أبدا .

أنجو : الحرب هى الحرب لا يُتصر فيها بالتقوى والصلاح ولكن بالرأى والحكمة والمعرفة .

دارتوا : ألا يوجد الرأى والحكمة والمعرفة إلا عندك ؟

أنجو : هذا ليس رأى وحدى بل رأى جميع البحارة ورجال الأسطول .

دارتوا : ما لنا ولرجال الأسطول ؟ إنهم لا يعرفون غير قتال البحر . أما البر فنحن فرسانه وأبطاله .

أنجو : ورأى الكونت بريتانى أيضا ، وهو ذو خبرة بالشرق وقد شهد حملة چان دى برين فهو يعرف هذه البلاد معرفة جيدة .

دارتوا : البطرك روبرت بطرك بيت المقدس يعرف الشرق خيرا منه ، وهو على رأى .

أنجو : عجباً .. هل نحن ماضون إلى ميدان حرب أم إلى حفلة قداس ؟

(يضحك بواقبيه ومرجريت دون الآخرين) .

لويس : (فى شيء من الامتعاض لهذه النكتة) يا كونت أنجو . أنا واثق أن الله ما يسر لنا فتح دمياط دون عناء إلا ليلهمنا أن فتح القاهرة من هذا الطريق .

أنجو : يا سيدى إني أحترم ثقتك بالله وإلهامه ، فلنشطر الجيش
شطرين على سبيل الاحتياط فشطر يغزو القاهرة من دمياط
وشطر يغزوها من الإسكندرية .

دارتوا : عجباً لك ، نخوفنا من الهزيمة ونحن مجتمعون في جبهة واحدة
ثم تدعونا إلى القتال في جبهتين ! ترى إلى أى شطر تنضم
وفي أى الجبهتين تقاتل ؟ أم تريد أن تبقى في الشجر مع
الحماية ؟

أنجو : (غاضباً) روبر ، هذه إهانة لا أحتملها من مثلك ، قدم
اعتذارك لى فى الحال !

دارتوا : كلا لن أفعل . فيم أعذر ؟

أنجو : إنك عرّضت بشجاعتى واهممتنى بالجبن .

دارتوا : أنت الذى اهتمت نفسك .

أنجو : (يرفع يده ليلطم دارتوا ثم يعدل عن لطمه) لولا مقام
أخى الملك لأدبتك حتى تعرف قدر نفسك !

دارتوا : (يستشيط غضباً) بل أنت أجبن من ذلك .

أنجو : (يرمى قفازه فى الأرض) خذه إن كنت شجاعاً .

(يهم دارتوا بأخذ القفاز فيسبقه بواتيه إلى التقاطه) .

لويس : أحسنت يا كونت بواتيه ، (يلتفت إلى أنجو) ويلك
يا قابيل أتريد أن تقتل أخاك ؟

أنجو : يا سيدى إن هابيل لم يبدأ أخاه بالعدوان كما فعل هذا الوقح !

لويس : ويلك ألم تسمع السيد المسيح يقول : من ضربك على خدك
الأيسر فأدر له خدك الأيمن ؟ هيا تصالحا قدامى الساعة ،

يا كونت أنجو مد إليه يدك .

(يمد أنجو يده إلى أخيه فيتصافحان) .

لويس : (لمرجريت) ماذا ترين أنت يا عزيزتى ؟ نحب أن نسمع رأيك .

مرجريت : أنا أؤيد الكونت بواتييه فى قبول الصلح . لقد سمعت من أحمد أن فخر الدين هذا يطمع فى الملك لنفسه ، فلعله عرض علينا اليوم هذا الصلح ليستعين بنا على بلوغ ما يريد . فإذا أتحنا لفخر الدين الاستقلال بحكم مصر فسينفصل بها عن سوريا ولا يعود بينهما اتحاد . وبذلك يزول الخطر الذى يهدد إماراتنا الصليبية هناك ، ويبقى القدس فى أيدي الصليبيين ، وهو غاية ما نريد .

بواتييه : هذا يا سيدى رأى وجيه ، فكل خطر علينا إنما يكمن فى اتحاد هذين القطرين . ألا تذكر كيف هجم نائب السلطان بدمشق على صيحاء فانتزعها من أيدي إخواننا الصليبيين حين بلغه أننا احتلنا دمياط ؟

أنجو : ولكن ما يضمن لنا ألا يتحد القطران بعد ذلك مرة أخرى على يد فخر الدين أو على يد غيره ، إن هؤلاء العرب يختلفون ولكنهم دائما يتحدون فى النهاية . يا سيدى لا أمان لنا ما بقيت مصر .

دارتوا : أجل .. من يرد قتل الحية فليهشم رأسها أولا ، وبابل الجديدة هى الرأس . إن جلالة الملكة تستشهد بقول أحمد لتدعونا إلى قبول الصلح ، ولكن أحمد يحرصنا على المبادرة بالهجوم .

مرجريت : من يدري لعله ينصحنا بقبول هذا الصلح إذا علم برسالة
فخر الدين إلينا اليوم ، ولا سيما إذا ضمنا له على فخر الدين
أن يعيد إليه حبيبته . (تظهر بياتريس وچان على الباب
الأيمن كأنهما تترددان في الدخول) .

لويس : (يلمحهما) ادخلي يا كونتس أنجو ، وأنت يا كونتس
بواتييه .

(تدخل بياتريس وچان خجلتين فتجلسان على الأريكة
اليمنى ، وتنظر إليهما مرجريت نظرة ذات معنى) .
أنجو : ما شأننا بأحمد هذا ؟ إني لا أثق به ولا أطمئن إليه ، وأغلب
الظن أنه جاسوس خطير .

لويس : هذا رأي أيضا فيه .

مرجريت : (تتمم) مظلوم والله ... مظلوم .

دارتوا : (يتمم) هذا جزاء المخلصين عندنا .

بواتييه : اسمعوا ، في وسعنا اليوم أن نكتشف صدقه من كذبه .

الجميع : كيف ؟

بواتييه : نسأل هذا الرسول عنه وعن قصة ابنة عمه في القصر .

أنجو : أفضل من هذا أن نجتمع الرجلين هنا بغتة لنرى ونسمع ما
يدور بينهما .

لويس : رأى جميل ، أحضروهما في الحال .

أنجو : (ينهض مسرعا ويشير لبواتييه) أحضر أنت الرسول
وسأحضر أنا أحمد .

(يخرجان من الباب الأيسر وتضبط چان على يد

بياتريس كأنها تقول لها : لو بقينا عند أحمد حتى الآن
لأنكشفنا) .

لويس : الآن نكشف أمر صديقك يا دارتوا .

دارتوا : أنا واثق يا سيدى أن ظنى فيه لن يخيب .

لويس : لأمرن بقتله إن تبين أنه كاذب .

دارتوا : وإذا تبين أنه صادق ؟

لويس : فسنكرمه ونعتمد عليه .

(يعود أنجو ومعه أحمد ، فيدنو أنجو من لويس ويسر
كلما فى أذنه . وفى خلال ذلك تقع عينا أحمد على
مرجريت ودارتوا يتسمان له فيبتسم لهما محيا ولكنه
يتوقى النظر إلى بياتريس وچان) .

لويس : اجلس يا أحمد معنا فقد عرفنا صدقك وإخلاصك .

أحمد : شكرا يا مولاي الملك . (يفسح له دارتوا فيجلس
بجواره) .

(يدخل بواتيه ومعه جوهر) .

لويس : أيها السيد أتعرف هذا الشاب ؟

جوهر : (مظهرا الدهش) أحمد النحال !

أحمد : (مظهرا الدهش أيضا) جوهر الفخرى !

جوهر : (للملك) سيدى الملك ، ماذا يعمل هذا الخادم هنا
عندكم ؟

أحمد : وماذا تعمل أنت يا مملوك ؟

جوهر : ويلك أنا رسول الأمير فخر الدين إلى الملك .

(دار ابن لقمان)

أحمد : هل يريد سيدك الخائن أن يعاونه الملك على اغتصاب عرش البلاد؟

جواهر : هذا ليس من شأنك . ولكن ماذا تصنع أنت هنا يا خائن؟
أحمد : لست بخائن يا مملوك ، إني أنتقم من الذين اغتصبوا مني ناعسة .

جواهر : قريبتك التي في القصر؟

أحمد : نعم .

جواهر : ويلك ! أتخون المسلمين جميعا وتعمل جاسوسا عليهم من أجل فتاة فلاحه؟

أحمد : من حقي أن أنتقم لحبي وشرفي . أنا فلاح شريف ولست بديوث .

(يلتفت إلى الملك) حذار يا سيدى أن يخذلك فخر الدين .. إنه إن تودد إليكم اليوم من ضعف واضطراب فسينقلب غدا عليكم حين يقوى مركزه في البلاد .

جواهر : أيها الخائن ، ستنال غدا جزاء خيانتك .

أحمد : هيهات !

لويس : كفى جدالا أمامي ، عد بالرسول إلى مكانه يا كونت بواتيه حتى نعد لسيدة جواب رسالته . (يخرج بواتيه وجواهر) .

مرجريت : أتأذن لي يا سيدى أن أوجه حديثي إلى أحمد؟

لويس : افعلى يا عزيزتى .

مرجريت : يا أحمد، إن الملك قد وثق بك فعليك أن تخلص له النصيح . هذا

فخر الدين قد عرض علينا اليوم أن يعطينا بيت المقدس
وعسقلان وطبرية إذا قبلنا أن نجلو بعساكرنا عن أرض
مصر ، فما رأيك في هذا الصلح ؟
(يصمت أحمد قليلا كأنه يفكر فيما سمع ، وفي أثناء ذلك
يعود بواتيه فيأخذ مجلسه بينهم ، وتتعلق الأنفاس انتظارا
لما يجيب به أحمد) .

لويس

: أجب يا أحمد .

أحمد

: مولاي الملك إياك أن تقبل .

(يكتب بواتيه ومرجريت ويتهلل أنجو ودارتوا
سرورا) .

بواتيه

: لكن لماذا ؟

أحمد

: أنتم الخاسرون إن قبلتم ، لأنه لن يسلم لكم بيت المقدس
وطبرية وعسقلان ، لا ضنا بها عليكم ، فحسبه هو أن يملك
مصر ، ولكن لعجزه عن تسليمها لكم ، فأهل الشام
لا يمكن أن يوافقوا على اعتلائه عرش مصر ، فهو ليس من آل
أيوب ولا من الأمراء المماليك ذوي النفوذ ، وإنما هو رجل
من الشعب لا أتباع له ولا أنصار .

مرجريت

: لا تخف يا أحمد ، فسنضمن لك على فخر الدين أن يعيد لك
حييتك .

أحمد

: يا مولاتي الملكة إنك أمرتني أن أكون ناصحا أميننا للملك
فأطعت أمرك . أما حييتي ناعسة ففى وسعكم أنتم أن
تعيدوها إلي إذا فتحت البلاد .

لويس : أحسنت يا أحمد . ولكن قل لي : هل أنت واثق أن فخر الدين يريد الملك لنفسه ؟

أحمد : هذا يقين لا شك فيه ، وهو يا سيدى معلوم للجميع . أتظنونه ما كان يستطيع أن يثبت لكم في دمياط لو أراد وهو من أكفأ القواد ؟ إنما تعمد سحب عساكره منها وتعريضها للوقوع في أيديكم ليمهد لنفسه سبيل الوثوب على الملك حين يموت السلطان المريض ، وقد كان .
(ينظر بعضهم إلى بعض متعجبين) .

لويس : تفسير معقول .

أحمد : يا مولاي قد كان هذا الذى ارتكبه فخر الدين أمس من ضربات الحظ السعيد لكم فلا تضيعوا فرصتكم اليوم .
دارتوا : (ينهض واقفا والسيف في يده) سيدى الملك ، قسما بالسيد المسيح لئن لم تقرر الهجوم على بابل الجديدة في الحال لأكسرن سيفى هذا ولأرجعن إلى فرنسا اليوم .

لويس : (مبدىا الرضا) احفظ يا أخى سيفك فقد قررت الهجوم
(يرسم علامة الصليب في خشوع) باسم الآب والابن والروح القدس .

الجميع : (يوقنون بألا سبيل الآن للاعتراض على قرار الملك في رسمون علامة الصليب مثله) باسم الآب والابن والروح القدس .

أنجو : أرى الآن يا سيدى أن يقتل هذا الرسول .

مرجريت : كلا يا سيدى ، إن الرسل لا يقتلون إلا عند الهمج .

- أحمد : إن أذنت لي يا مولاي فالرأى عندي أن تبعثوا معه ردا بقبول العرض ، لتخضعوا فخر الدين وتفاجئوه قبل أن يستعد .
- لويس : براقو .. براقو ! إنك لذو رأى سديد .
- أنجو : من أجل ذلك يا سيدي اقترحت قتل الرسول حتى لا يبلغ عن أحمد . فإننا سنحتاج غدا إليه في أمور كثيرة هناك .
- أحمد : شكرا لك يا سيدي الكونت . ولكن لا تخف . إني أستطيع أن أتذكر كما أشاء فلا يعرفني أحد .
- لويس : (معجبا) بوركت يا أحمد . لأعطيك وسام الشرف يوم يتم لنا النصر .
- دارتوا : أبشر يا صديقي بوسام الشرف ! سأنزلك اليوم معي ولن تعود إلى الزنزانة .
- (يستر أحمد وجهه بيديه وينشج باكيا فينظرون إليه متعجبين) .
- لويس : ما خطبك يا أحمد ؟ ماذا يبكيك ؟
- أحمد : (بصوت تخنقه العبرات) ناعسة يا مولاي ، حبيبتى ناعسة !
- دارتوا : (يربت على كتفه مواسيا) لن يصيبها سوء . سنستردها لك غدا من القصر .
- أحمد : (في نشيجه) ناعسة ، ناعسة !
- (تتأثر جان وبياتريس وتتنهد مرجريت ويطفر الدمع من عينيها فتمسحه بمنديلها ، ويلاحظها لويس فتبدو الفيرة في وجهه ويلمع الحقد في عينيه) .

لويس : (يصيح فجأة كأنما دون وعى منه) چان دى بوا ! أين

چان دى بوا ؟

أنجو : فى مكانه يا سيدى بالخضر الأمامى خارج المدينة .

لويس : حسبتكم رأيتموه اليوم هنا فى المدينة (كمن يحاول

إصلاح الهفوة التى بدرت من لسانه) لكى نأمره أن يخطر

المعسكرات التى حواليه بالاستعداد للمسير (يعلو

صوته) يجب أن ننقذها من فتنة الشيطان ، يجب أن ننقذ

ناعسة !

دارتوا : سمعت يا أحمد ؟ مولانا الملك نفسه هو الذى تعهد بإنقاذها

لك .

أحمد : (فى حرقه) يا ليتها ماتت قبل اليوم !

(يدهش الجميع) .

دارتوا : كيف تتمنى موتها وأنت تحبها ؟

أحمد : (يرقى باكيا على ذراع دارتوا) لولاها يا سيدى الكونت لما

اضطرت أن أخون أمتى وبلادى !

(يعترى الجميع رثاء ووجوم) .

(ستار)

الفصل الثاني

المشهد الثالث

هو كبير فى القصر السلطانى بالمنصورة :
أريكة فاخرة فى صدر المسرح حولها مقاعد مبطنه
بالجلد متناثرة فى المكان .

باب على اليسار يؤدى إلى داخل القصر وآخر فى
الطرف الأيسر من الصدر يؤدى إلى الخارج .
فى الجانب الأيمن شباك كبير له فتحات متعددة تطل على
الفناء الفسيح الذى يفصل بين القصر وبين سورهِ وسدته
الخارجية .

(الوقت أول الليل) .

يرفع الستار عن شجر الدر جالسة على الأريكة وقد
جلس أمامها إلى اليمين على مقعدين متجاورين الطواشى
جمال الدين وعز الدين أيك .

شجر الدر : (فى غضب) ويلكم .. لا هم لكم إلا فخر الدين تأتمرون
به وتدبرون له المكاييد . ألا ترون عدونا بخيله ورجله
لا يفصل بيننا وبينه غير البحر الصغير ؟

جمال الدين : يا مولاتى لا تصبى غضبك علينا ، فما نحن إلا رسولان
إليك من إخواننا الأمراء المماليك .

أيك : إن شئت دعونا هم إليك ليكلموك بأنفسهم .

شجر الدر : كلا لا أريد مقابلة أحد منهم .

جمال الدين : ولو تأذنين لركن الدين بيبرس فإنه يزعم أنه ينوب عن رئيسه فارس الدين أقطاي .

شجر الدر : كلا لا أريد بيبرس ولا غيره ، أنما تنوبان عن الجميع

جمال الدين : إذن فأرعبنا سمعك يا مولاتي حتى نشرح لك ما يريدون .

شجر الدر : (في ضيق) إني مصغية .

جمال الدين : إنهم ضاقوا ذرعا بفخر الدين وكبريائه واستبداده . لقد

أمرهم اليوم أن يتركوا معسكرهم حول القصر ليرابطوا

على شط البحر الصغير في هذا الجو البارد ، زاعما لهم أن

الصليبيين سينقضون على برنا بغة بين ليلة وأخرى .

شجر الدر : إنه قائدهم فيجب أن يطيعوه .

أيك : لكننا لا نقبل يا سيدتي أن يستبد علينا كأنما هو سلطان أو ملك .

شجر الدر : دائما هذه التهمة .

جمال الدين : لقد ظنوا — وظنهم في محله — أنه أمرهم بذلك ليقصصهم عن

المدينة وعن قصر ك ، فينتهز هو الفرصة ويعلن الملك لنفسه

مستعينا بالأشرفية الموتورين وبجموعه من عامة الشعب .

شجر الدر : ما هذا اللغو ؟ لو أراد فخر الدين ذلك لأعلنه نهارا جهارا

ولما احتاج إلى مثل هذه الحيلة المزعومة . ويلكم ألا تعلمون

أن في يده عهدا مكتوبا من سيدى المرحوم بولاية الأمر من

بعده ؟

جمال الدين : هذا يا مولاتي يؤكده ظنهم ويؤيد مخاوفهم .

شجر الدر : ما أغباهم ، لقد مات المرحوم منذ ثلاثة أشهر ، فما الذى جعل فخر الدين ينتظر حتى اليوم لو كان ذلك فى نيته ؟
أيك : كان يرتقب الظروف الملائمة . لذلك ما كاد يموت السلطان حتى بعث سرا إلى ملك الفرنج يعرض عليه أن ينزل للصليبيين عن بيت المقدس وطبرية وعسقلان إذا ضمنوا له ملك مصر .

شجر الدر : (تضحك) إنما فعل ذلك طبقا لخطة مرسومة ، وهو يعلم أن هذا الفرنسيين لن يقبل مثل هذا الاتفاق بحال . وهذا الذى كان .

أيك : وكيف علم ذلك ؟ هل كان يعلم الغيب ؟
شجر الدر : الفرنسيين شديد التمسك بدينه ، وهو يأتمر بأمر البابا لا يجرؤ على مخالفته ، وإلا حل به ما حل بالأنبرور لما قبل مثل هذا الصلح مع الملك الكامل من قبل ، فكان جزاؤه من البابا أن حكم بكفره وخروجه من ملتهم .

أيك : لماذا إذن كنتم هذا الأمر ولم يستشرنا فيه أو يعلمنا على الأقل ؟
شجر الدر : ويلكم أتريدون أن يستشيركم فى سر كهذا وهو لا يرى منكم إلا العداوة والخذلان ؟

أيك : وهل استشارك أنت ؟
شجر الدر : نعم . ولو لم يفعل لما عتبت عليه فهو قائدنا وعلينا أن نوليه الثقة الكاملة .

أيك : إنه إنما يتودد إليك يا سيدتى لغرض فى نفسه .
شجر الدر : ماذا تعنى ؟

أيك : قد بلغنا أنه يطمع في الزواج منك ليصل بك إلى مأربه ، ثم لا يقيم لك وزنا بعد ذلك . وهذا أمر لا يمكن أن نقبله أبدا .

شجر الدر : يا ليت يطمع في الزواج مني حقا ! إذن لتزوجته فلن أجد أكفاً منه ، ولكنه رجل قد زهد في الملك وفي الجاه وفي كل شيء ، ولا هم له اليوم إلا أن يكيد للعدو لينزل به الضربة القاضية ولو فقد في ذلك حياته . (تنظر إليهما مليا ثم تقول لأبيك في اهتمام) لكن من أين سمعت هذا الكلام ؟

أيك : (كالمرتبك) سمعته من غير واحد .

شجر الدر : (في خيبة أمل) لعلك أنت الذي تطمع في ذلك وليس فخر الدين !

أيك : (في خجل واضطراب) حاشى يا سيدتى أن أحدث نفسي بالصعود إلى سمائك ، أنت مولاتى وزوجة مولاي .

شجر الدر : (في جفاء وغلظة) فاسكت إذن ولا تطلق الإشاعات حول الناس .

(يتلون وجه أبيك وينظر إليه جمال الدين في شيء من الشماتة)

(تدخل ناعسة فتدنو من شجر الدر وتسارها بحديث ثم تسر شجر الدر في أذنها كلاما فتخرج ناعسة من حيث دخلت) .

جمال الدين : قبل أن نقوم من عندك يا مولاتى ماذا نقول لإخواننا الأمراء فيما بعثونا فيه ؟

شجر الدر : قولا لهم يطيعوا قائدهم فيما أمرهم به .
جمال الدين : إنهم قد حلفوا لا يرحون معسكرهم حول القصر أبدا .
شجر الدر : (بحدة) قولا لهم إننى أنا التى آمرهم بذلك ، فليطيعوا
أمرى أو فليعصوه .

جمال الدين : ليس من صالحك أن تخلطى أمرك بأمره .
شجر الدر : (غاضبة) أتهددنى يا جمال الدين ؟
جمال الدين : معاذ الله يا مولاتى . إننا جميعا فى طاعتك وليس فىنا أحد
يجرؤ أن يعصى لك أمرا . أنت فىنا اليوم بمكان مولانا
المرحوم الصالح أيوب .

أيك : بل إننا لنحبك أكثر مما كنا نجهه !
شجر الدر : (تنظر إليه نظرة ثم تلتفت إلى جمال الدين) فما هذا الذى
قلته الساعة ؟

جمال الدين : يا مولاتى لو كنت أمرتهم بذلك ابتداء لأطاعوك فيه
ولو ماتوا فى سبيله ، ولكنهم يعلمون أن هذا هو أمر فخر
الدين الذى عارضوه من قبل ، فلا تضعيهم فى موقف حرج
فتزيدى من سخطهم وتذمرهم ، وليبق مكانك فوق
الجميع مرعى الحرمة موقر الجانب .

شجر الدر : (بعد صمت يسير) اتركانى أوامر نفسى فى هذا الشأن إلى
حين .

جمال الدين : (ينهض) شكرا يا مولاتى لعطفك ورعايتك .
أيك : (ينهض أيضا) نسأل الله لك التوفيق والسداد .
(يخرجان) .

شجر الدر : (تدنو من الباب الأول فتادى) ناعسة ! أثنينى بصاحبك .

(تعود إلى مكانها فى الأريكة)

(تدخل ناعسة ومعها أحمد وجوهر الفخرى) .

جوهر : (ينحنى محييا) أسعد الله مساءك يا مولاتى السلطانة .

شجر الدر : أهلا وسهلا .. ترى فى أى شىء أرسلتك مولاك ؟

جوهر : معذرة يا مولاتى .. ما أرسلنى مولاي فى شىء .

شجر الدر : (تنظر إلى أحمد) ألم تبلغ الأمير فخر الدين أننى أرحب بلقائه الليلة ؟

أحمد : بلى يا مولاتى وهو قادم بعد قليل .

جوهر : بعد أن يصلى العشاء ، يا مولاتى .

شجر الدر : إذن فقيم مجيئك أنت يا جوهر ؟

أحمد : جئنا معا يا مولاتى لنكلمك فى أمر مهم قبل أن يحضر الأمير .

شجر الدر : (فى شىء من الأسى) لو كان هو الذى أرسلكما فيه لربما يكون حقا أمرا ذا بال . ولا بأس هاتيا ما عندكما .

جوهر : إنه قد قرر اليوم يا مولاتى أن يتعرض للموت ليسترى من مكاييد الأمراء المماليك .

شجر الدر : (متعجبة) كيف ؟

أحمد : صمم على أن يواجه الفرنج وحده إذا عبروا النخاضة حتى يستشهد .

جوهر : قرر أن يتحرر يا مولاتى .. أن يفارق الحياة .

أحمد : وقد حاولنا أن نصرفه عن هذا العزم بكل سبيل فلم ننجح .
جواهر : (ييكى) امنعيه أنت يا مولاتى فأنت وحدك تستطيعين أن تمنعيه .

شجر الدر : هذا غير معقول . لعله قال لكما ذلك فى نوبة من نوبات ضيقه بهؤلاء المماليك لينفس عن ذات صدره ولم يقصد حقا ما فهمناه ، أو لعله كان يمزح معكما فيما قال .
جواهر : كلا يا مولاتى ، إني أعرف مزاحه من جده . ولقد رأيت يكتب وصيته ويجمع ديوان شعره ويستحم كل ليلة ليلقى ربه على طهارة .

الحاجب : (يظهر على الباب) الأمير فخر الدين يا مولاتى .
شجر الدر : (تنهض فرحة) دعه يدخل .
(يرتبك أحمد وجواهر) .

أحمد : ألا ننسحب نحن يا مولاتى حتى لا يرانا ؟
شجر الدر : بل تبقيان حتى يكون هو الذى يأمركما بالانصراف إذا شاء .

فخر الدين : (يدخل) السلام عليكم .
شجر الدر : وعليكم السلام . مرحبا بمنقذنا الوحيد من خطر الفرنج .
فخر الدين : ما يصنع مملوكى هذا عندك ؟ أنا لم أرسله إليك ولا استأذنى هو فى زيارة القصر .

أحمد : أنا الذى أحضرته معى أيها الأمير .
فخر الدين : (ممازحا) لتخطب له جارية من جوارى مولاتنا السلطانة ؟

شجر الدر : (باسمحة) إن شاء زوجته من إحداهن ليكون لى شرف
الإصهار إليك ! اجلس يا ابن شيخ الشيوخ (تجلس هى
ويجلس فخر الدين) إن صبح يا فخر الدين ما سمعته منهما
الليلة عنك فإنى عاتبة عليك مدى الحياة ، لا تكلمنى
ولا أكلمك .

فخر الدين : (مبتسما) ماذا حدثك عنى هذان الشقيان ؟
شجر الدر : أنك تريد أن تعرض نفسك للموت .
فخر الدين : (يتنهد) أجل يا سيدتى هذا ما أردت أن أفاتحك فيه .
شجر الدر : (مكتئبة) من أجل هؤلاء المماليك الذين لا يسوون قلامة
ظفرك ؟

فخر الدين : لا يا سيدتى بل من أجل سلامة الدين والأمة والوطن .
شجر الدر : سلامة الدين والأمة والوطن فى حياتك يا فخر الدين لا فى
موتك .

فخر الدين : قد استخرت الله ربى فوجدت أن فى موتى اليوم حياة هذه
الأمة .

شجر الدر : وهؤلاء الغزاة الصليبيون فى عقر دارنا ؟
فخر الدين : لولا هذا الخطر العظيم لكان لى شأن آخر مع هؤلاء
المماليك .

شجر الدر : ماذا تعنى ؟
فخر الدين : لحرصت على حياتى لأتمكن من تنفيذ تلك الوصية الكبرى
التي أوصانى بها زوجك المرحوم الصالح أيوب ، طيب الله
ثراه .

شجر الدر : وما يمنعك اليوم من تنفيذها ؟ أعلنها يا فخر الدين وأنا معك ، ولن يجرؤ أحد أن يفتح فمه بكلمة .

فخر الدين : كلا يا سيدتي .. لا ينبغي أن نعرض سلامة البلاد لهذا الخطر الكبير من أجل مطلب لا يمكن تحقيقه إلا بعد دفع هذا الخطر .

شجر الدر : إذن فلتعش لتحقيقه بعد دفع هذا الخطر . لا ينبغي يا فخر الدين أن تدع وصية السلطان تموت بموته ، وأنت تعلم حرصه الشديد على تنفيذها قبل أن يلقي الله .

فخر الدين : هذه وصية الحق والعدل فلن تموت أبدا . إن لم يتسن تحقيقها اليوم فعسى أن يحققها بعدى بطل من أبطال هذه الأمة .

شجر الدر : (بعد صمت يسير) ولم لا تحاول أنت ذلك يا فخر الدين ؟

فخر الدين : تعلمين يا سيدتي أنني قد حاولت ذلك جهدي فلم أوفق . شجر الدر : (في غضب) يجب أن تتخلص من كل من يعترض طريقك من هؤلاء المماليك الخونة . لا تخف يا فخر الدين .. اضرب ضربتك وأنا معك ، ولن أتخلي عنك .

فخر الدين : كيف نتخلص منهم وهم عدتنا في القتال ؟

شجر الدر : وكيف نقاتل الأعداء هؤلاء الخونة الجبناء ؟

فخر الدين : كلا ليسوا جبناء يا سيدتي ولا خونة . وأنهم ليتحرقون شوقا إلى قتال العدو ، وما يشبطهم عن ذلك إلا وجودي على قيادتهم خشية أن أقوم بما يعرفونه عني من جعل الحاکم من الشعب والجيش من الشعب .

(دار ابن لقمان)

شجر الدر : (فى تأثر) كلا لا بد أن نجد سبيلا آخر يا فخر الدين غير أن نخسرك .

فخر الدين : قد قلبت الأمور على وجوها فلم أجد غير هذا الحل . اطمئنى ياسيدتى لن نخسر البلاد بموتى شيئا ، بل ستكسب و تغنم .

شجر الدر : (يوشك أن يغلبها الدمع) انتظر يا فخر الدين ، سأدخل لبعض شأنى ثم أعود إليك (تخرج مسرعة) .

فخر الدين : (يلتفت إلى أحمد وجوهر) تبا لكما .. كان عليكما أن تؤيدانى فيما اعتزمت ، فأنتم أعرف الناس بأن هذا هو الحل الوحيد .

أحمد : بل يوجد حل آخر أيها الأمير (بصوت خافض) لم لا تتزوجها فهى تحبك وتعزك ، ولن يجرؤ أحد من هؤلاء المماليك حينئذ أن يرفع عينيه إليك .

جوهر : أجل يا مولاي لم يبق شك فى أنها تحبك .

فخر الدين : (ينهرهما فى لطف) صه ، إياكما أن تتلفظا بهذا الحديث مرة أخرى . ما بقاؤكما الآن هنا ؟ اذهب أنت يا جوهر لترى شئون الدار لعلهم يحتاجون شيئا ، ولا تنس أن تمر على الحمامى ليهيئ لي حماما الليلة .

جوهر : (فى صوت يخالطه البكاء) سمعا يا مولاي . (يخرج) .

فخر الدين : وأنت يا أحمد اذهب فتفقد ما قام به الأهالى من الاستعدادات فى الشوارع والأزقة ، ثم وافنى فى دارى لتخبرنى بما رأيت .

أحمد : سمعا يا سيدى . (يتجه نحو الباب) .

فخر الدين : طريقك من هنا (يشير إلى الباب الثانى) يجب أن تذهب الآن فى الحال .

أحمد : سأفعل يا سيدى .. من الباب الخلفى لأودع ناعسة (يخرج) .

فخر الدين : (يزفر زفرة عميقة) واها عليهما .. إنهما يكيان على .
(تعود شجر الدر وقد ارتدت حلة من التحمل الأسود الغليظ فزاد جمالها وظهر فى وجهها أثر الغسل بالماء) .
شجر الدر : أحسست بشيء من البرد فارتديت هذا الثوب الثقيل . أين ذهب الشقيان ؟

فخر الدين : صرفتهما .
شجر الدر : لماذا ؟ هل تريد أن تفتحنى فى شيء لا تحب أن يسمعه ؟
فخر الدين : أنا لا أخفى عنهما شيئاً ، ولكن على كل منهما واجب لا ينبغى أن يهمله .

(تدخل ناعسة حاملة قدح من الذهب الخالص فى صينية من الفضة) .

شجر الدر : هذه ناعسة بنتى .
فخر الدين : ما شاء الله . ما شاء الله (يضحك) .

شجر الدر : ما يضحكك يا فخر الدين ؟
فخر الدين : هذه التى زعم أحمد للصليبيين حين كان عندهم فى دمياط أنه لجأ إليهم ليستنقذوها له من قصر السلطان !

شجر الدر : (ضاحكة) نعم نعم .
(تضع ناعسة لكل منهما قدحه وقد احمر وجهها خجلاً) .

فخر الدين : ما هذا يا ناعسة ؟ قرفة باللبن ؟

ناعسة : نعم يا سيدى الأمير .

شجر الدر : رأيت الجو باردا فأرادت أن تدفئنا ! بارك الله فيك يا بنيتى ..

(يسود الصمت بينهما وهما يحتسيان المشروب وناعسة

واقفة بالصينية كالتمثال)

فخر الدين : (يفرغ من قدحه) شكرا يا ناعسة لقد أحسنت صنعه

(يعيد إليها القدرح) .

شجر الدر : لقد قررت يا فخر الدين أن أستدعى الطواشى جمال الدين

وعز الدين إليك وهما لسان الأمراء الممالك لنواجههما

بكل شيء ، فما رأيك ؟

فخر الدين : لا فائدة يا سيدتى من الحديث معهم .

شجر الدر : من أجل خاطرى يا فخر الدين .

فخر الدين : لا مانع عندى إن شئت .

شجر الدر : (تعيد قدحها لناعسة) ابغى أحدا من عندك يا ناعسة

لا استدعاء الطواشى وأليك فى الحال .

(تحرك ناعسة رأسها علامة الطاعة وتخرج) .

فخر الدين : لقد جربت معهم كل وسيلة .

شجر الدر : لكنى لم أكن معكم ، فلعلهم الليلة حين يرون وقوفى إلى

جانبك يرجعون إلى صوابهم ، لا سيما وزعيمهم أقطاى

لا يزال بعيدا عنهم مع توران شاه فى دمشق .

فخر الدين : أغلب الظن أنهما قد تركا دمشق منذ أيام ، وأنهما الآن فى

حدود الكرك .

شجر الدر : لا تؤاخذنى يا فخر الدين . كانت غلطة منى إذ وافقتهم على
استقدام توران شاه دون استشارتك .
فخر الدين : لا عليك يا سيدتى ، فما كان فى وسعك يومئذ إلا أن
توافقهم .

(تسمع حركة الباب)

شجر الدر : ادخل يا جمال الدين أنت وصاحبك .
(يدخل جمال الدين وأبيك فيومئذ بالتحية لفخر الدين
ويرد عليهما بالإيماء) .

(تشير لهما شجر الدر بالجلوس فيجلسان)

شجر الدر : إني أريد الليلة أن أزيل هذا الجفاء الذى بينكم وبين قائدكم
فخر الدين ، فصارحوه بما عندكم أمامى وليصارحكم حتى
تتحد الكلمة فتقضوا على هؤلاء الغزاة فى وقت قريب .
أبيك : ماذا نقول له يا سيدتى ؟ إنه يعرف ما عندنا ونحن نعرف ما
عنده .

شجر الدر : (فى حدة) ما هذا ؟ أهذا كلام يقال فى هذا المقام يا أبيك ؟
جمال الدين : أعتقد أن أول خطوة يخطوها الأمير فخر الدين أن يعفى
الأمراء المماليك من ترك معسكرهم حول القصر ليرابطوا
فى شط البحر الصغير دون داع .

فخر الدين : لو كان هذا أول أمر يتقاعسون عن طاعته لهان ، ولكنها
سلسلة من العصيان ، أولها فى معركة دمياط ولن يكون
آخرها المراقبة على البحر الصغير . هذا هو القول الصريح
فهل تستطيعان أن تنكراه ؟

جمال الدين : فلنصارحك القول أيضا . إنهم ينكرون عليك استبدادك
كأنك سلطان أو ملك . بل يرون أنك تسعى للملك
وتعمل على تجنيد عامة الشعب لتستغنى بهؤلاء عنهم . ولولا
حاجتك إليهم اليوم لقتال هؤلاء الصليبيين الغزاة لعجلت
بذلك . فقد وضعتهم بين نارين : نار الفرنج اليوم ونارك غدا
حين تجردهم من كل رزق وسلطة .

فخر الدين : أحسنت يا جمال الدين إذ صارحتنا بالحقيقة . أما استبدادي
فأنا القائم بأعمال القيادة فمن حقي أن أطاع دون نقاش أو
تردد . وأما السعي للملك وتجنيد الشعب فهذه رغبة مولانا
السلطان ووصيته إليّ قبل أن يلقي الله . ولقد كان يريد لها
عاجلة قبل أن يموت ولكنني ناشدته أن يؤجلها حتى نطرد
الغزاة من البلاد . فلم يوافق إلا بعد ما أخذ عليّ عهدا بأن
أعمل على تنفيذ وصيته بعد ما يزول خطر الفرنج .

شجر الدر : هذا صحيح ، وأنت يا جمال الدين تعلم ذلك .
أيك : لا ريب أن مولانا السلطان كان قد فقد رشده إذ ذاك ،
وإلا لما رضى أن يخرج الملك من آل أيوب وهو الذى قضى
حياته كلها في تثبيت ملكهم .

شجر الدر : كلا لقد بقى في كمال رشده حتى أسلم الروح بين ذراعى .
أيك : استغل ضعف السلطان فأدخل هذا الرأى في عقله .

شجر الدر : لا يا عز الدين ، أشهد أنه كان يُثبّطه عن ذلك حرصا
على اتحاد الكلمة .

جمال الدين : أنسيت يا مولاتي أن فخر الدين كان أول من دعا إلى هذا
الرأى من قبل ؟

فخر الدين : حقا كنت أسعى إلى ذلك فيما مضى فعاقبني السلطان
بالحبس والاعتقال ، ولكنى لم أعد بعدها منذ عفا عني
وأطلق سراحى .

أييك : غير معقول أن ينقلب السلطان هكذا من النقيض إلى
النقيض دون محرض .

شجر الدر : هذا لأنكم تجهلون المحنة القاسية التى كان يعانها السلطان
فى آخر أيامه . كان لا يخشى الصليبيين وحدهم ، بل يخشى
كذلك هجمات التتار من الشرق ، ولا سيما بعد ما
اكتسحوا الممالك الإسلامية القائمة بيننا وبينهم . وكان
ضيق الصدر بما يرى من تناحر آل أيوب حتى عرضوا
الدولة لطمع الطامعين . وكثيرا ما يأرق فى الليل ويكى
ندما على قتله لأخيه العادل ، أو حزنا على ابنه المغيث الذى
مات فى سجن عمه الصالح إسماعيل ، ويعتقد أن هذه السيرة
ستكرر فى آل أيوب من بعده ، والأعداء هم الغاثون ،
والأمة هى التى تدفع الثمن . فعزم صادقا على تغيير هذا
النظام لتتحد الأمة من أقصى الصعيد إلى ديار بكر كما كان
يقول . (يغلبها البكاء فيسود الصمت لحظة) .

فخر الدين : إنكم تخشون أن يُستغنى عن خدمتكم ، وغاب عنكم أننا
إذا تم لنا ذلك فى المستقبل فسنحتاج إلى جيش قوى منكم
ومن الشعب ، فأمامنا رقعة واسعة من أقصى الصعيد إلى

ديار بكر ، وأمامنا كذلك أعداء من الغرب ومن الشرق .
وأنا أقسم لكم بالله أننى لن أعلن لنفسي العهد إلا إذا وافقتم
على ذلك ، وإلا فسنختار رجلا آخر من أفاضل الأمة لنوليّه
الأمر .

شجر الدر : الآن لم يبق لكم عذر إن كان فى قلوبكم ذرة من الإيمان
بالله والإخلاص للدولة .

جمال الدين : يا مولاتى لو كان الأمر يخصنا نحن الاثنين لو افقنا ، ولكننا لا
نحسب جماعتنا يقبلون ذلك . لقد حلفوا على ولاية
توران شاه ولن يقبلوا غيره أبدا .

فخر الدين : إذن فلندع أمر المستقبل فى يد الله ، ولنواجه اليوم ما نحن فيه
من الخطر . إن الفرنج قد اكتشفوا مخاض فى البحر الصغير
وهم عازمون على اجتيازها بغتة ، فلتقوموا بواجبكم الذى
رسمته لكم .

أيك : لكنك لم تذكر لنا كيف بلغك هذا ؟

فخر الدين : من جواسيسى وعيوني .

شجر الدر : إنهم يظنونك نائما مثلهم !

أيك : كلا يا سيدتى نحن لسنا نائمين ، ولو كان الأمر لنا لقضينا
على الفرنج قبل أن يصلوا إلى البحر الصغير .

فخر الدين : يا عز الدين ، تلك خطة قد رسمناها فلا بد لنا من تنفيذها
كما رسمت .

أيك : لنا الآن شهران وهم تجاهنا لا يفصلنا غير البحر الصغير .
فخر الدين : لا بأس علينا من ذلك بل البأس عليهم ، فكل يوم يقتل منهم

ويؤسر .

أيبك : أتعنى ما يقوم به الحراشفة من المناوشات التى لا تسمن
ولا تغنى من جوع ؟

جمال الدين : (فى سخرية خفيفة) ليس لك أن تنكر فضل الحراشفة يا
عز الدين . ألم تسمع بما فعله أحدهم إذ قورَّ بطيخة فأدخل
فيها رأسه ثم عام بها وهو غاطس فى الماء إلى بر الفرنج ، فلما
رآها أحدهم نزل ليأخذها ، فسحبه صاحب البطيخة إلى
برنا وجاء به أسيرا ؟

أيبك : سمعت يا جمال الدين . من منا لم يسمع بهذه الحكاية ؟ عليك
إذن يا فخر الدين أن تشتري آلاف البطيخ وتوزعها على
الحراشفة ليحاربوا بها الفرنج !!

فخر الدين : إن تسخروا بهذه الأعمال فإنها هى التى أزعجت الفرنج
حتى فكروا فى انسحاب شطر من جيشهم إلى دمياط
بقيادة الكند أنجو أشجع إخوة الفرنسيس وأدهاهم ، ليعبر
به إلى الإسكندرية فيغزو القاهرة منها . وما عدلوا عن هذا
الرأى — لحسن حظنا — إلا حينما دهم أحد البدو على تلك
المخاضة . فلنستعد لهم ولنضربهم هنا ضربة تطير من
رءوسهم ما يحملون به من غزو القاهرة إلى الأبد .

جمال الدين : إن الجماعة قد وافقوا لك على ثلثائة منهم يرابطون على
البحر الصغير كما أردت ، فإذا سمعوا الصرير هبوا جميعا للقاء
العدو .

فخر الدين : ثلثائة لا تكفى . ففرسان الداوية الذين سيجتازون المخاضة

مع الكند دارتوا هم جمة عساكر الفرنج . أريد ألفين على الأقل يكون فيهم الأبطال من طراز بيرس وبلبان الرشيدى وسنقر الرومى وسنقر الأشقر .

أيك : وأنا هل نسيتهى ؟

فخر الدين : أنت ترابط بجماعتك هنا لحماية القصر .

جمال الدين : مستحيل أن يرضى هؤلاء الأمراء بعد ما أعلنوك بالرفض .

فخر الدين : إذن فليقض الله ما يشاء فإنما بيده وحده النصر .

شجر الدر : قوما إذن من عندى واتركانى وحدى مع الأمير .

(يخرج جمال الدين وأيك) .

فخر الدين : قد قلت لك يا سيدتى لا فائدة من الحديث معهم . هؤلاء

أقلهم تعصبا وتحاملا فما بالك بغيرهم ؟

شجر الدر : ولماذا اخترت عز الدين أيك لحماية القصر ؟

فخر الدين : لأنه أحسنهم طاعة ، ولأن بين رجاله شابا يعدل هؤلاء

الممالك جميعا شجاعة وأمانة .

شجر الدر : من ذا تعنى ؟

فخر الدين : سيف الدين قطز .

شجر الدر : ذاك الذى يقال إن أصله من بيت السلطان خوارزم شاه ؟

فخر الدين : هو حقا من ذلك البيت العريق وخلاله تؤيد ذلك (يتنهى)

لا تعجبنى يا سيدتى فتلك عاقبة ملوك المسلمين أن يصبح

أولادهم ممالك يباعون فى أسواق الرقيق !

شجر الدر : (تطرق مليا ثم ترفع رأسها) ، أراك يا فخر الدين قد

فكرت فى كل شىء ودبرت كل شىء إلا شيئا واحدا لم تشأ

أن تخطره ببالك .

فخر الدين : ما هو يا سيدتى ؟

شجر الدر : بحياتك لا تحوجنى إلى التصريح فقد فهمت ما أعنى .

فخر الدين : أخشى أن يخطئ فهمى ما أردت .

شجر الدر : إذا تحققتما ما عند صاحبيكم

من الغرام فذاك القدر يكفيه

أنتم سلبتم قوادى وهو منزلكم

وصاحب البيت أدرى بالذى فيه

لمن هذان البيتان يا فخر الدين ؟

فخر الدين : هما يا سيدتى لنفس الشاعر الذى يقول :

أعصى هوى نفسى صغيرا وبعد ما

رمتى الليالى بالمشيب وبالسكبر

أطيع الهوى عكس القضية ؟ ليتنى

خلقت إذن كهلا وألت إلى الصغر

(تطرق شجر الدر مرة أخرى) .

شجر الدر : (تنشج باكية) لا ينبغي لمثلك يا فخر الدين أن يموت .

فخر الدين : الأعمار يا سيدتى بيد الله ، فقد يموت الهارب من الموت

وينجو طالبه .

شجر الدر : لست أدرى كيف تبيع لنفسك أن تحرم المسلمين

كفايتك ، وهم أحوج ما يكونون إليك ؟

فخر الدين : كلا لن يحرم المسلمون من كفايتى شيئا . كل ما عندى قد

أفرغته فى تلك الخطة التى رسمتها لهذه الحرب بالتفصيل كما

شرحها لك في لقائنا السابق ، وفي وسعك بعدى أن تأمرهم بتنفيذها خطوة خطوة فهم يطيعونك ويسمعون لك .
وكأنى حينئذ بالملك لويس هذا يقع أسيرا في أيديكم هو وأكناده وباروناته ، فاحرصوا على حياتهم حتى يفتدوا أنفسهم منكم بالجللاء عن دمياط والجللاء عما بقى من أماراتهم بالشام ، فإنى أعلم أن لهذا الفرنسيين مقاما كبيرا عندهم ويعدونه من عظماء دينهم .

شجر الدر : والله يا فخر الدين لآنت عندنا أئمن من كل ذلك .
لا حق لك أن تقولى هذا ، فما من أحد تعدل حياته حياة الإسلام وأمته .

شجر الدر (بعد صمت يسير) هب أن الفرنج قد عدلوا عن مغامرتهم هذه بخوض البحر الصغير ، فماذا يكون ؟

فخر الدين : حينئذ سأكون موجودا عندكم إلى حين .

شجر الدر : إذن فلا خاضوه أبدا (ترفع يديها إلى السماء) يا رب ، اصرفهم عن القيام بهذه المغامرة .

فخر الدين : لن يقبل الله يا سيدتى دعاءك على المسلمين .

شجر الدر : لست أدعو عليهم بل أدعو لهم .

فخر الدين : فاعلمى إذن أننى أنا الذى دبرت هذه المكيدة للفرنج .

شجر الدر : (متعجبة) أنت الذى

فخر الدين : (مكملا) أوعزت إلى ذلك البدوى أن يدهم على المخاضة .

شجر الدر : ماذا تقول ؟ ما حملك على ذلك ؟

فخر الدين : ألم تفهمى قصدى بعد ؟ لأصرفهم عن غزو القاهرة من

طريق الإسكندرية .

شجر الدر : إذن فعلام منعتموهم من إقامة الجسر ؟ علام بذلتم الجهود والأموال في تحطيمه وتخريبه مرة بعد مرة حتى استعملتم النار الإغريقية في حرقه وحرق برجيه الكبيرين ؟

فخر الدين : الجسر يا سيدتي غير المخاضة . المخاضة لا يمكن عبورها إلا في هذين اليومين ، ثم يأتي المد بعد قليل فلا يصبح لها أثر .

شجر الدر : أفلا تخشى يا فخر الدين أن يدال لهم علينا في هذه المعركة ، وأنت ترى أمر هؤلاء المماليك ؟

فخر الدين : أنا واثق أن المماليك سيقضون عليهم في هذه المعركة .

شجر الدر : ويحك لماذا لجأت إلى هذه المكيدة المخوفة بالخطر ؟ لماذا لا تنازل سفنهم الواردة من دمياط فتقطع عنهم الميرة والمؤن كما رسمت في خطتك ؟

فخر الدين : ما حان أوان ذلك بعد ؟

شجر الدر : ماذا يمنعك الآن من ذلك ؟

فخر الدين : ما عندنا اليوم سفن كافية بعد .

شجر الدر : وماذا يفعل نائبنا حسام الدين في القاهرة ؟ ألسنا أمرناه بصنع الشواني والسفن من قبل أن يموت السلطان بمدة ؟

فخر الدين : إنه قد أرسل بعضها ولا يزال يجهز ما بقي .

شجر الدر : قبحه الله . لا بد أنه متواطئ مع هؤلاء المماليك عليك . يجب أن يعاقب على خيانه .

فخر الدين : يا سيدتي ليس هذا وقت الحساب والعقاب .

شجر الدر : إنه ينتظر قدوم توران شاه ليتخذ له يدا عنده . إنهم جميعا

مداهنون منافقون .

فخر الدين : أنت كفيلة بهم جميعا يا شجر الدر ، ولا خوف على البلاد منهم ما بقيت واقفة لهم بالمرصاد .

شجر الدر : ماذا تصنع امرأة مثلى إذا غاب عنها الرجل ؟

فخر الدين : أنت عندى بألف رجل . لولاك يا شجر الدر ما أقدمت على نيتى هذه وأنا مطمئن البال ، هل لك يا سيدتى أن تأذنى لى فإن أمامى أمورا كثيرة يجب أن أقضيها قبل أن أنام ؟

شجر الدر : لا أستطيع يا فخر الدين أن أحول بينك وبين واجبك .

فخر الدين : (ينهض) وداعا يا شجر الدر ، يا من تعدل عندى ألف رجل .

شجر الدر : مع السلامة (يخرج فخر الدين فتهاوى هى على أريكتها

باكية) مع السلامة يا خير الرجال (تنتحب) يزعم أننى بألف رجل . آه يا ليت ارتضانى واحدة من النساء فحسب

... واحدة من النساء !

(ستار)

المشهد الرابع

نفس المنظر السابق في القصر السلطاني بالمنصورة وفي
الليلة التالية .

(الوقت : في الهزيع الأخير من الليل قبيل الفجر) .

يرفع الستار عن البهو خاليا يسوده سكون الليل ، ولا يصدع
ظلامه غير النور الخافت المنبعث من القناديل المعلقة . وفجأة
يسمع صوت هائج يصيح من بعيد ولا يزال يتضح صوته شيئا
فشيئا حتى يرن في سكون الليل رنينا حادا خارج القصر .

شجر الدر : سمعت يا ناعسة ؟ سمعت الصرير ؟

الصوت : انتبهوا يا مسلمون ! الصليبيون في بر كم ، الصليبيون في
بر كم ، هبوا يا عرب يا مسلمون ! الصليبيون عبروا البحر
الصغير إليكم ، هبوا يا عرب يا مسلمون ! (يتعد الصوت
شيئا فشيئا كأن صاحبه يريد أن ينبه الناس في كل مكان)
(تدخل شجر الدر في قميص نومها فزعة ، وتدخل
خلفها ناعسة مرعوبة) .

شجر الدر : سمعت يا ناعسة ؟ سمعت الصرير ؟

ناعسة : (يلجمها الرعب عن الكلام فتومئ برأسها أن نعم) ؟

شجر الدر : ترى هل استيقظ الممالك من نومهم ؟ تبا لهم أين هم ؟

(تنادى من الشباك) عز الدين أيبك ! جمال الدين

محسن ! عز الدين ! جمال الدين ! (تخرج ناعسة منطلقة ثم
تعود بحجة من الصوف) .

ناعسة : ارتدى هذه فإن البرد شديد . (تلبسها الجبة) .
شجر الدر : شكرا يا بنيتي . (تمضي في ندائها) جمال الدين !
عز الدين !

(يدخل جمال الدين وأليك) .

الاثنان : لبيك يا سيدتي ، لبيك يا مولاتي .

شجر الدر : ألم تسمعوا الصرخ ؟

أليك : بلى يا سيدتي ، وقد أيقظت رجالى ليستعدوا للدفاع .

شجر الدر : ما تصنع أنت ورجالك هنا ؟ اخرج بهم للقاء العدو .

أليك : فخر الدين يا سيدتي أمرنا بحماية القصر .

شجر الدر : أمر صادف هواك ، اذهب إذن فأيقظ البحرية ، انطلق .

أليك : لا بد أنهم قد استيقظوا .

شجر الدر : (في حدة) انظر ماذا فعلوا ؟ انطلق .

(يخرج أليك) .

وأنت يا جمال الدين انطلق فاعلم لى ماذا فعل فخر الدين .

جمال الدين : ألا أبقى عندك لأطمئنك ؟

شجر الدر : (في حدة) لا أريد أن يبقى عندي أحد . انطلق .

جمال الدين : سمعا يا مولاتي . (يخرج) .

شجر الدر : (تتمم) ترى ماذا فعل فخر الدين ؟ ترى أين هو الآن ؟

(يعود جمال الدين فتهب في وجهه) ويلك ماذا رجع

بك ؟

جمال الدين : هذا جوهر الفخرى يا مولاتى يحمل نبأ عن سيده .
جوهـر : (يدخل باكيا) مولاتى . أعظم الله أجرك فى مولائى ..
البقية فى حياتك .

شجر الدر : (فى اضطراب وتلعثم) أين ؟ .. كيف ؟ .. تكلم يا جوهر
ماذا حدث ؟

جوهـر : كان بعد فى الحمام إذ سمعت الصرير ، فأخبرته فخرج
مسرعا من الحمام ، وركب جواده وركبنا نحن مماليكه
معه ، فمر بنا على معسكر البحرية فجعل يوقظهم
ويناديهـم ، فلما تباطأوا قال لهم : سأسبقكم فالحقوا بى .
وانطلق بنا صوب الشط وهو بغير درع ولا لامة ، وإذا بنا
نلقى جماعة من الثلاثمائة المرابطين على الشط فارين من وجه
العدو ، فناداهم سيدى ليكروا معه فلم يقبلوا ، وإذا بفرسان
الداوية قد برزوا لنا فى عدد ضخـم ، فجعل سيدى يقاتلهم
ونقاتلهم معه ، وإذا مماليكه ينفضون عنه واحدا بعد واحد
ويهربون ، فلما رأى سيدى ذلك صاح بى : انطلق يا جوهر
فأنذر من فى القصر : وقد هممت أن أعصيه وأبقى معه ،
فإذا هو قد اندفع فى غمارهم فغاب بين سيوفهم وسمعت
صوته يقول : اللهم الشهادة فالجنة ! فتركته وانطلقت . آه
يا ليتنى مت معه !

شجر الدر : (تبكى) رحمة الله عليك يا فخر الدين ، لقد نلتـهما إن شاء
الله : الشهادة والجنة . (يدخل أيبك) .

أيبك . : وجدت البحرية قد هبوا جميعا يا سيدتى وسيخرجون لقتال

العدو .

شجر الدر : تبا لهم ، هلا عادوا إلى نومهم الآن ، فإن الذى كان يؤرقهم
قد مات !

أيك : (يطرق خجلا ولا يجيب) ... ؟

(يسمع صهيل خيول فى فناء القصر) .

شجر الدر : (تدركها روعة) ما هذا ؟ أو قد وصل العدو إلى القصر ؟

أيك : (كأنما يستعيد شيئا من اعتباره) هذه خيول رجالى فى

الفناء ... اطمئنى يا سيدتى فإننا على تمام الأهبة واليقظة ،

وقد رتبهم جميعا لحماية القصر . (يخرج ويخرج جمال

الدين خلفه) .

جوهر : هل تأذنين لى يا مولاتى ؟

شجر الدر : إلى أين ؟ ابقى معنا .

جوهر : سأبحث عن جثة سيدى فأحملها إلى داره ، فما ينبغى أن

تبقى ملقاة فى الطريق .

شجر الدر : (فى تأثر شديد) خيرا تصنع يا جوهر . اذهب ثم عد إلى

لتخبرنى ماذا فعلت . مع السلامة يا جوهر .

(يخرج جوهر وتهم ناعسة أن تلحق به ولكنها تتراجع)

شجر الدر : ما خطبك يا ناعسة ؟

ناعسة : هممت أن أسأله عن أحمد لعله يعرف شيئا عنه ، ولكن

شجر الدر : لا يا بنيتى .. فى مصابه هذا لا ينبغى أن نسأله عن غير

سيده .

(يشرق ضوء النهار شيئا فشيئا)

(تسمع جلبة شديدة من خارج سور القصر ، فتخف
شجر الدر وناعسة إلى الشباك)
(يسمع دق شديد على السدة الخارجية وصوت تحطيم)
(يدخل جمال الدين) .

شجر الدر : ما هذا يا جمال الدين ؟ هل جاء العدو ؟
جمال الدين : نعم يا سيدتى .. إنهم يحاولون اقتحام السدة ، ولكن
اطمئنى ، إننا لهم بالمرصاد . (يقف بجانبها على الشباك)
شجر الدر : من ذاك الذى يتسلق السور ؟
جمال الدين : هذا سيف الدين قطز .

شجر الدر : (صوته من الفناء) كم عددهم يا قطز ؟
قطز : (صوته) حوالى سبعين فارسا . هل أفتح لهم السدة ؟
أيبك : افتح ، استعدوا يا رجال .
ناعسة : وى ! قطز فتح السدة ! دخل فرسان العدو !
(جلبة خيولهم فى الفناء)

(يسمع عويل النساء من داخل القصر فتستشيط شجر
الدر غضبا وتدنو من الباب الأول فتصيح فيهن) :
شجر الدر : ما هذا الصياح والعويل ؟ يا جوارى السوء اسكتن
وإلا ألقيت بكن إلى العلوج (ينقطع العويل فجأة وتنقطع
الجلبة فى الفناء وتعود شجر الدر إلى موقفها من الشباك)
شجر الدر : ما بالهم وقفوا عن القتال ؟
جمال الدين : سيف الدين قطز تحدى أميرهم أن يارزه .
شجر الدر : والسدة مغلقة ، من الذى أغلقها ؟

جمال الدين : الدرويش الخائن الذى جاء معهم ..

شجر الدر : أين هو ؟

جمال الدين : هو ذاك واقفا خلفهم بجانب السور . ها هو ذا أحدهم قد

برز لسيف الدين قطز !

ناعسة : شرعا يتبارزان !

(تسمع جلبة المبارزة وقعقة السيفين ويتابع الثلاثة

المبارزة فى حماسة واهتمام)

أصوات : (تتردد بين حين وآخر من الجانبين) مرحى يا قطز ! إيه

يا قطز ! برافو يا كونت دارتوا ! برافو !

ناعسة : دارتوا ! هذا صديق ... هذا الشقيق الأصغر لملك الفرنج .

شجر الدر : (ترفع يدها فى حماسة بالغة) اضربه يا قطز ! (فى خيبة

أمل) ويل له ! لماذا ضيع هذه الفرصة ؟

جمال الدين : يخيل إلىّ يا مولاتى أن سيف الدين يداوره ولا يريد أن يقتله .

شجر الدر : لماذا ؟

جمال الدين : لا أدرى لماذا .

(يسمع دق شديد على السدة الخارجية مرة ثانية) .

صوت : (من خارج السدة) ويلكم أنا بيبرس ! افتحوا لنا السدة ، أنا بيبرس .

جمال الدين : الحمد لله . هذا بيبرس وجماعته قد جاءوا للنجدة . عن

إذنك يا مولاتى لأبعث من يفتح السدة (يخرج منطلقا) .

ناعسة : انظرى يا ستى ! الدرويش يزحف ليفتح السدة !

شجر الدر : لعله يريد أن يحرسها لئلا تفتح .
ناعسة : لا ياستى ... ها هو ذا يعالج المزلاج ليرفعه .
دارتوا : (صوته) اترك السدة يا أحمد ، لا تفتحها !
أحمد : (صوته) يا كونت دارتوا ، لا ينبغي أن نبقى كالفيران في
المصيدة ، يجب أن نفتحها .

شجر الدر : هذا أحمد يا ناعسة ، هذا الدرويش هو أحمد !
ناعسة : أجل يا ستي هذا صوته ، هو بعينه ، الله ! فتح السدة !
(تسمع جلبة الداخلين الجدد) .

بييرس : (صوته) الآن سنغلق عليكم الباب من جديد .
شجر الدر : هذا بييرس يحاول غلق السدة .
ناعسة : أين اختفى أحمد ؟ لم نعد نراه .
شجر الدر : الكند ترك المبارزة وتصدى لبييرس ! أهوى بسيفه على
بييرس ! الله طار سيفه من يده !

ناعسة : بل طارت يده مع سيفه ! بضربة من قطز !
شجر الدر : (في حماسة بالغة) إى والله ، اقله يا قطز ! أجهز عليه !
قطز : (صوته) الله أكبر ! قتلت أخا الفرنسيين !
أصوات : الله أكبر ! الله أكبر !

بييرس : (صوته) وقد أغلقت السدة عليهم فلا تبقوا منهم على
أحد !

(تشتد الجلبة وتختلط الأصوات من قعقة السيوف
وصرخات المصابين وحممة الخيل ووقع حوافرها في
المطاردة ، ثم يخفت ذلك شيئاً فشيئاً ، ثم يعلو الهتاف

بصوت واحد) :

الله أكبر ! الله أكبر .

بيبرس : (صوته) هيا بنا الآن لنجدة إخواننا في الميدان ، هيا إلى

البحر الصغير ! إلى النضال يا أبطال ، إلى القتال .

ناعسة : (تلتفت إلى الباب) انظري يا ستي . هذا أحمد . (يدخل

أحمد في زى أولاد البلد) .

شجر الدر : أين زى الدراويش الذى كان عليك يا أحمد ؟

أحمد : أوقد عرفتمونى ؟

ناعسة : نعم لما نادوك باسمك .

أحمد : قد خلعتة يا مولاتى تحت .

شجر الدر : بهذه السرعة ؟

أحمد : بحكم المهنة يا مولاتى (يتقدم إلى شجر الدر فيقبل يدها)

مولاتى أهشك بهذا النصر .

شجر الدر : الحمد لله . إنما النصر يوم أن يتم طردهم جميعا من البلاد .

أحمد : هذا أوله ، وسيتم كله إن شاء الله كما رسمه قائدنا الشهيد ،

أعظم الله أجره فيه .

شجر الدر : أنا حزينة عليه يا أحمد .

أحمد : لا تحزنى يا مولاتى ، فقد أكرمه الله بالشهادة وحقق له ما

أراد لوطنه .

بيبرس : (صوته) إلى القتال يا أبطال ، إلى القتال . (يسمع

انطلاق الخيول من الفناء) .

شجر الدر : قاتلهم الله ، ما شمروا للقتال إلا بعد ما علموا بمصرعه .

أحمد : رحمة الله عليه . كان يعلم ذلك حق العلم . معذرة
يا مولاتي ، أريد أن أفضي إليك بأمر هام قبل أن يجيء أحد
عندك .

شجر الدر : ماذا عندك ؟

أحمد : واحد من أشرف الصليبيين أنقذته من الموت وأخفيته في
حظيرة الغنم تحت ، ولا أريد أن يعلم بأمره أحد .

شجر الدر : ويلك يا أحمد ! ما حملك على هذا الفعل ؟

أحمد : أريد أن أعود به سالما إلى معسكرهم حتى لا يرتابوا في
إخلاصي لهم بعد الذي كان .

ناعسة : أو تريد أن تعود إليهم بعد ؟

أحمد : نعم . إن مهمتي لم تنته بعد .

ناعسة : ألا تخشى أن يقتلوك بعد الذي كان منك اليوم ؟

أحمد : هذا الصليبي الذي معي سينفى عني كل اتهام أو ريبة .

ناعسة : لكن ...

شجر الدر : دعية يقوم بواجبه يا ناعسة .

أحمد : مريها يا مولاتي تحضر لي ملاءتين وبرقعين وخفين مما تلبسه
الجواري عندكم ، لرتديها أنا والصليبي ثم ننسل من الباب
الخلفي .

شجر الدر : حسبك الله يا أحمد ! اذهبي يا ناعسة فاطلبي ذلك من أم
بشير القهرمانة . (تخرج ناعسة) ترى ماذا يجري هناك في
الميدان ؟

أحمد : اطمئني يا مولاتي ، فالمماليك قد تحمسوا للقتال كما رأيت ،

والأهالى كذلك قد استعدوا فى الشوارع والحارات
بالسكاكين والسواطير والفئوس والهرافات وأناشيط
الحبال، ومن سطوح المنازل بالزيت المغلى والطوب
والحجارة وكل ما تصل أيديهم إليه .

(تعود ناعسة ببقجة فتعطيها لأحمد ، فيفتحها أحمد ليرى
ما بها ثم يعيد عصبها) .

شجر الدر : هذا هو المطلوب ؟

أحمد : نعم .. إلى اللقاء يا مولاتى فى خير . افسحى لى الطريق
يا ناعسة . (يتوجه وناعسة نحو الباب الأول) .

شجر الدر : متى نراك يا أحمد ؟

أحمد : قريبا يا مولاتى إن شاء الله . (يخرج هو وناعسة) .

شجر الدر : (تنهد) وأحسرتاه عليك يا فخر الدين .

(يدخل عز الدين أيك وجمال الدين) .

أيك : (فى شيء من الزهو) رأيت يا سيدتى كيف قضينا عليهم

جميعا فلم ينج منهم أحد ؟

شجر الدر : (فى قلة احتفال) الحمد لله ..

جمال الدين : وجاءتنا أنباء من الميدان بأن القتال لا يزال حامى الوطيس

على طول الشط ، وأن ملكهم الفرنسيين نفسه قد اعتصم

مع رجاله بجديلة .

شجر الدر : أو قد احتلوا بجديلة ؟

جمال الدين : نعم .

شجر الدر : لو كنتم رابطتم على الشط كما أمركم قائدكم الشهيد

لما استطاعوا أن يأخذوا جديلة منكم .

أيك : ثقي يا سيدتي أننا سنستردها من أيديهم قبل غروب شمس اليوم ، أو قبل طلوع شمس الغد على الأكثر ، فاهزائم تلاحقهم في كل مكان .

جمال الدين : حتى الذين اعتصموا منهم بشوارع المدينة وأزقتها ، وهم عدد كبير ، قد فتك بهم الأهالي فلم يرجع منهم أحد .

شجر الدر : الحراشفة هيه ؟ الحمد لله إذ شهدت الآن بفضل الحراشفة .

(يعتريهما خجل فيسكتان)

(يدخل جوهر الفخرى) .

شجر الدر : أهلا بجوهر . (باهتمام) هل وجدت جثة مولاك يا جوهر ؟

(يتغير وجهها أيك وجمال الدين) .

جوهر : (في بكاء) نعم يا مولاتي .. وجدتها مقطعة ممزقة .

شجر الدر : لا حول ولا قوة إلا بالله . واستطعت أن تحملها إلى داره ؟

جوهر : حملتها يا مولاتي إلى بيت صهره ، لأن داره قد نهبها مماليكه

الخونة فلم يتركوا فيها شيئا .

أيك : قبحهم الله .. أليس لسيدهم عندهم مقام ؟

شجر الدر : (معرضة عن كلام أيك) ويل لهم كيف اجترأوا على

ذلك ؟

جوهر : (تتغير لهجته من رقة البكاء إلى صرامة التحدى)

بالتواطؤ يا مولاتي مع بعض الناس !

شجر الدر : أعرفهم يا جوهر ، تبا لهم ، أما كفاهم ما آذوه في حياته

حتى يسيئوا إليه بعد مماته ؟ والله لقلامه ظفره أفضل منهم
جميعا ، والله لينتقم الله له منهم .
(يربد وجهها أيك وجمال الدين) .

جواهر : إن كنت تعزينه يا مولاتي فابسطي حمايتك على دوره
وأملأكه في القاهرة ، فإني أخشى أن يتناهبوها أيضا
فلا يتركوا شيئا لأهله وورثته .

شجر الدر : اطمئن يا جواهر ، فسأكتب إلى نائب السلطنة في القاهرة أن
يتولى حمايتها بنفسه حتى تقسم على ورثته .

جواهر : أبقاك الله يا مولاتي وأدام عزك وعلاك . (يسمع حس
موكب قادم من بعيد وهو يردد نشيدا حماسيا لا يتضح
الآن إلا صداه) .

شجر الدر : ما هذا ؟ (تخف ناحية الشباك فلا ترى شيئا) من يعلم لي
علم هذا الموكب ؟

أيك : أنا يا سيدتي . (يخرج منطلقا) .

جمال الدين : لعل عساكرنا انتصرت في الميدان يا مولاتي وقضت على
الصليبيين .

شجر الدر : قلت آنفا إن الفرنج احتلوا جديلة فلا يعقل أن يتخلوا عنها
بهذه السرعة .

(تدخل ناعسة فرحة) .

ناعسة : هذا يا ستي موكب الشعب وهم يحملون الأعلام ورعوس
الفرنج على عيدان .

شجر الدر : من أين رأيتهم ؟

ناعسة : من السطح فوق .
شجر الدر : (في عتاب) ويلك ما الذى صعد بك إلى السطح ؟
ناعسة : كنت يا ستي أرقب الجاريتين اللتين خرجتا من عندنا ، فإذا
الموكب قادم ..

شجر الدر : صه (تسمع للنشيد الذى اتضح بعض الاتضاح) .
قتلنا رجالك يا فرنسيس
ودسنا جلالك يا فرنسيس
(يعود إليك) .

أيك : هذا يا سيدتى ...
شجر الدر : موكب الحراشفة يا عز الدين ؟
أيك : نعم .
شجر : مر بفتح السدة لهم ليدخلوا فناء القصر .
أيك : لكن يا سيدتى ...
شجر الدر : أريد أن أراهم .. افعل ما أمرتك ، أسرع .
أيك : أمرك يا سيدتى . (يخرج) .

(يزداد النشيد اتضاحا كلما اقتربوا من القصر) .

ناعسة : يا له من نشيد جميل .
شجر الدر : عرفت يا ناعسة ماذا يقولون ؟
ناعسة : قتلنا رجالك يا فرنسيس
ودسنا جلالك يا فرنسيس
شجر الدر : وماذا بعد ذلك ؟
ناعسة : غير واضح يا سيدتى .. لا أستطيع أن أتبينه .

جواهر : أنا تبينته يا مولاتي .

أردت الكنانة فكانت وبالك
ورمت المكانة فأفانيت آلك

شجر الدر : جميل ، جميل .

ناعسة : (تنظر من الشباك) ها هم يا ستي يفتحون لهم السدة .

جواهر : عن إذنك يا مولاتي سأنضم إليهم .

(يخرج منطلقا) .

(تهرع شجر الدر ناحية الشباك ، ويتبعها جمال الدين في

شيء من التناقل) .

ناعسة : ها هم أولاء يدخلون .

(تسمع جلبة دخول الموكب إلى الفناء) .

شجر الدر : (في نشوة وإعجاب) يا لله ، من أين اصطادوا كل هذه

الرءوس ؟

جمال الدين : (في لهجة من يريد التهوين من هذا العمل) كانوا

متربصين لهم في منعطفات الشوارع والأزقة !

شجر الدر : والله إنهم لأبطال ، صه : لنستمع ماذا يقولون .

الجمع : قتلنا رجالك يا فرنسيس

ودسنا جلالك يا فرنسيس

القائد : قتلنا رجالك ودسنا جلالك

فعد إن بدالك تجدنا حيالك

شجر الدر : ناعسة خذي المفتاح وأحضري عشرة أكياس من الذهب .

ناعسة : (تأخذ المفتاح) حالا يا ستي . (يخرج منطلقة) .

الجمع : يا فرنسيس

قتلنا رجالك يا فرنسيس

ودسنا جلالك يا فرنسيس

القائد : أردت الكنانة فكانت وبالك

ورمت المكانة فأفنت آلك

الجمع : يا فرنسيس

قتلنا رجالك يا فرنسيس

ودسنا جلالك يا فرنسيس

القائد : فغادر حمانا وقوض رحالك

وإلا فمنا ستلقى نكالك

الجمع : يا فرنسيس

قتلنا رجالك يا فرنسيس

ودسنا جلالك يا فرنسيس

القائد : ستفني رجالك وتخرس مالك

وتندب حالك وتبكي مآلك

الجمع : يا فرنسيس

قتلنا رجالك يا فرنسيس

ودسنا جلالك يا فرنسيس

(تعود ناعسة ببعض الأكياس ثم تخرج لتحضر الباقي) .

شجر الدر : (ترفع سجف الشباك حتى تطل على الجمع) يا حماة

المنصورة .. يا أبطال الشعب .. لله دركم خذوا هذا الذهب

حلالا لكم . (تنثر الأكياس واحدا بعد واحد ، وتعود

ناعسة بياقي الأكياس فتثرها شجر الدر أيضا) .

الجمع : (تتعالى أصواتهم) : عشت يا شجر الدر ! تعيشين لنا
يا شجر الدر ! عشت يا أم خليل ! تعيشين لنا يا أم خليل .
شجر الدر : (تعود إلى مناداتهم) وبطلكم الشهيد فخر الدين ،
ألا تحيونه بكلمة ؟

(يسود الصمت هنية ثم يرتفع صوت القائد) .

القائد	:	يا فخر الدين .
الجمع	:	يا فخر الدين .
القائد	:	يا فخر الدين سمعنا لك .
الجمع	:	يا فخر الدين .
القائد	:	من أهل البغي ثأرنا لك .
الجمع	:	يا فخر الدين . يا فخر الدين
القائد	:	إن رحمت فقد خلّفت لهم .
الجمع	:	يا فخر الدين .
القائد	:	من قلب الأمة أشبالك .
الجمع	:	يا فخر الدين . يا فخر الدين
القائد	:	وغدا يأتي منا بطول .
الجمع	:	يا فخر الدين .
القائد	:	يبنى للأمة أمالك .
الجمع	:	يا فخر الدين . يا فخر الدين .
القائد	:	فيوحدها ويسودّها .
الجمع	:	يا فخر الدين .

- القائد : ويرُوح في الأخرى بالك .
الجمع : يا فخر الدين . يا فخر الدين .
القائد : يا فخر الدين هنيئاً لك .
الجمع : يا فخر الدين .
القائد : مثواك الجنة أبقى لك .
الجمع : يا فخر الدين . يا فخر الدين .
شجر الدر : (تغيم عيناها بالدمع ولكن وجهها مبتهج سرورا وهي
تتمم) .
مثواك الجنة أبقى لك يا فخر الدين .

(ينزل الستار)

المشهد الخامس

المنظر : داخل خيمة واسعة نصبت للملك لويس في وسط المعسكر الصليبي بالشط الشمالى للبحر الصغير ، قماشها باللون الأحمر ولها ثلاثة أبواب : أحدها (فى أقصى اليمين) يؤدى إلى مخدع الملك ، والثانى (فى أدنى اليمين) يؤدى إلى أخبية إخوته وزوجاتهم ، والثالث (فى أدنى اليسار) يؤدى إلى خارج الخيمة .

فى صدر المسرح كرسى للملك وحوله مقاعد ، ومن فوقها فتحات مستديرة فى قماش الخيمة تطل على البحر الصغير . فى الجانب الأيسر مقاعد أخرى وفوقها فتحات أخرى أعلى من الفتحات التى فى الصدر يتسرب منها ضوء النهار .

(الوقت أول الضحى) .

(يرفع الستار فنرى لويس جالسا على كرسيه مطرقا كأنه فى هم ثقيل ، ثم ينهض قائما فى إعياء ومشقة ويطل من إحدى الفتحات كأنه يستنشق الهواء ، ثم يرتد عن الفتحة ويضم مفرج سترته كأنه يشعر ببرد) .

لويس : (يتمم فى حرقة وأسى) اليوم عيدهم الكبير ونحن لا نجد ما نأكل . (يرسم علامة الصليب ثم ياءعو) إلهى المسيح (دار ابن لى مان)

آتنا معجزة تقلب عيدهم هذا عيداً لنا ومأتماً عليهم ، فأنت قادر على كل شيء .

(ينتقل إلى إحدى الفتحات التي في الجانب الأيسر فلا يكاد يطل منها حتى يرتد عابساً وهو يتمم) أقبلت ، أقبلت الخاطئة (يجلس على كرسيه)
(تدخل مرجريت من الباب الأيسر) .

لويس : هيه اطمأن قلبك على صاحبك ؟

مرجريت : (في حدة) هو صاحبك يا صاحب الجلالة قبل أن يكون صاحبي ، فتحفظ في كلامك .

لويس : أنا لا أزوره في سجنه مثلك .

مرجريت : لو كنت تحفظ الجميل لفعلت .

لويس : الجميل لهذا الجاسوس ؟

مرجريت : جاسوس لك على قومه .

لويس : بل جاسوس لهم على .

مرجريت : هل لديكم برهان ؟

لويس : لدينا قرائن كافية .

مرجريت : قد درست قضيته بدقة وعناية فلم أجد دليلاً واحداً يسوغ لكم أن تتهموه ، بله أن تحبسوه وتعذبوه .

لويس : يا عزيزتي ما كلفك أحد بالدفاع عنه .

مرجريت : يا سيدي لست بحاجة إلى تكليف من أحد . أنا لا أستطيع

أن أرى ظلماً شنيعاً كهذا يرتكب أمامي في حق إنسان بريء ثم أسكت . هذه قسوة وحشية .

لويس : لو بقيت يا عزيزتى فى دمياط حيث كنت لما عرضت شعورك الرقيق لرؤية مثل هذه القسوة .

مرجريت : قد علمت الآن أن حضورى قد ساءك .

لويس : وقد أدركت الآن أكثر من أى وقت آخر أنني كنت على حق إذ تركتك فى دمياط ولم أستصحبك معى .

مرجريت : (فى سخرية باردة) هل لك يا صاحب الجلالة أن تخبرنى بحقيقة غرضك من ذلك ؟

لويس : (يضطرب قليلا) فيم هذا السؤال ؟ قد شرحته لك من قبل . لم أشأ أن أعرضك لأخطار الحرب ، أو أرهق أعصابك بشهود ما فيها من قسوة .

مرجريت : لماذا إذن لم تتركنى فى فرنسا ؟

لويس : ليس من اللائق أن يشترك إخوتى بزوجاتهم وتتخلفى أنت .

مرجريت : إذن فلماذا حبستنى فى دمياط من دونهن ؟

لويس : حبستك ؟ أتسمين رعايتى لك حبسا ؟ لقد كنت فى حاجة إلى الراحة لهذا الجنين الذى فى بطنك .

مرجريت : لا تغالطنى . ما كنت إذ ذاك قد علمت بعد أنني حامل .

لويس : على أى حال كنت أريد لك السلامة والراحة فى دمياط ، وكان ينبغى أن تشكرينى على ذلك .

مرجريت : علام أشكرك ؟ أعلى أن تركتنى فى وحدة قاتلة هناك ، ليس عندى غير حارس فى الثمانين رتبته عينا على لينقل أخبارى إليك ؟

لويس : ما أجحدك للجميل ، أنا عينته ليعخدمك ويحرسك .

- مرجريت : يحرسنى مماذا؟
- لويس : مما عسى أن يروع المدينة من هجمات العدو الخاطفة .
- مرجريت : أيستطيع شيخ فى الثمانين أن يحمينى من ذلك؟
- لويس : (يضيق بنقاشها ذرعا) أوه، أكنت تودين أن يكون حارسك شابا فى الخامسة والعشرين؟
- مرجريت : ما كنت أريد أن يحرسنى أحد ألبته . كنت أريد أن تثق بأمانتى وشرفى فذلك هو حارسى الوحيد .
- لويس : لو لم أثق بك ما تركتك هناك وحدك .
- مرجريت : يا صاحب الجلالة قد طلبت منك أن تصدقنى ، فينبغى أن تكون لديك الشجاعة لتقول الصدق .
- لويس : ماذا تريد أن تقولى؟
- مرجريت : إنك حبستنى فى دمياط لتحول بينى وبين عشيقى چان دى بوا .
- لويس : (فى حقد) عشيقك؟!
- مرجريت : هكذا هو فى زعمك .
- لويس : هيينى قصدت ذلك حفظا لسمعتى وسمعتك ، فأى لوم علىّ؟ أنا حر فيما أفعل .
- مرجريت : أنت حر فيما تفعل ، هذا حق . ولكن يجب ألا تجبن عن الاعتراف بهذه الحقيقة .
- لويس : هأنذا قد اعترفت بها ، فماذا تريد بعد؟
- مرجريت : كان عليك بعد أن تخلصت من ذلك الجندى المسكين أن تستقدمنى إليك .

لويس : كذبت . أنا ما تخلصت منه . اشترك في معركة من المعارك فقتل فيها ، فما ذنبي ؟ لو كنت أستطيع أن أدفع الموت عن أحد لدفعته عن الكونت دارتوا شقيقى الحبيب .

مرجريت : لا تحاول أن تداورنى . قد عرفت كل شيء . أنت الذى أرسلت دى بوا في مهمة انتحارية .

لويس : ويلك ! كل من يشترك في حرب فهو عرضة للموت . لقد قتل من جيشنا ألوف غيره وبينهم كثير من الكونتات والبارونات ، فلم لا أسأل إلا عن هذا الشويعر ؟

مرجريت : لأن لهذا الشويعر شأنًا عندك غير شأن الآخرين .

لويس : إن كان له شأن فعندك أنت لا عندى .

مرجريت : بل عندك أنت يا صاحب الجلالة . لقد حرصت على كتمان موته دون الآخرين ، فلم يرد اسمه في أية قائمة من قوائم القتلى الذين سقطوا في المعارك .

لويس : أو كنت تتبَّعين تلك القوائم ؟

مرجريت : نعم .

لويس : لو كنت أعلم ذلك لأدرجت اسمى أنا في إحداها حتى تطمئننى على حياة صاحبك !

مرجريت : حاشاى يا صاحب الجلالة . أنت زوجى ومولاى ومليكى ، فشعرة منك عندى بألف جان دى بوا .

لويس : إذن فعلام كل هذه الضجة من أجله ؟

مرجريت : لأنى لا أحب لزوجى الملك أن ينزل عن شمائل الملوك .

لويس : وما شمائل الملوك عندك ؟

مرجريت : أن يربأوا بأنفسهم عن الكذب ، فإنما يلجأ إليه الضعيف
والجبان .

لويس : كنت أريد أن أجنبك ألم الفجيعة في صاحبك ، ولكن
ما دمت تريدان الحقيقة فهاتكها سافرة . أجل أنا قتلت جان
دى بوا وأمرت بحذف اسمه من قوائم القتلى فهل رضيت ؟
مرجريت : الآن حملتني إنما سيظل يعذب ضميري إلى الأبد (تنشج
باكية) .

أنا قتلت دى بوا لا أنت .. أنا قتلته ، أنا قتلته .

لويس : (يفر زفرة حرة من الغيظ ، ولكنه يرى بكاءها فيكظم
غيظه ويدنو منها مواسيا) يا عزيزتي لا أنت قتلتيه ولا أنا
قتلته . تلك مشيئة الله اختار لهذا الشاعر الاستشهاد في
سبيل الصليب ليزيل ما بينى وبينك من الجفوة . فيعود
الصفاء بيننا كما كان . أنا في حاجة إليك يا مرجريت ..
ألا ترين ما أنا فيه اليوم ؟ جسمي عليل وقلبي حزين ،
وجيشي يعاني الجوع واليأس ويرقب سوء المصير ، فأوليني
بحياتك شيئا من حبك وعطفك .

مرجريت : (تمسح الدمع من عينيها وتتجلد) تنشد الحب والعطف
يا سيدى وليس في قلبك ذرة من الحب والعطف .

لويس : أقسم لك يا عزيزتي ما عاد في قلبي غير العطف والرثاء
لذلك الشاعر المسكين .

مرجريت : الموتى تعطف عليهم ولكن لا تعطف على الأحياء .

لويس : كانت تلك زلة مني في حق ذلك الشاعر المنكود الحظ ،

وقد ندمت عليها ولن أعود لمثلها أبدا .

مرجريت : فما بال هذا المسكين الذى حبسته منذ أكثر من شهر ، وما تفتأ تعذبه بالسياط كل يوم ليعترف لك بذنب ما جناه ؟ هذا الذى ظللت تعنّفى أمس أكثر من ساعة لأنى حملت إليه قليلا من الطعام أسد به الجوع الذى كاد يقضى عليه ؟ لويس : ما عنفتك يا عزيزتى إلا لأنك أخذت له من طعامى ، وما عندنا إلا قليل ونحن أولى به منه .

مرجريت : أتخاف على طعامك يا سيدى أن ينفد ؟ إذا نفد الذى عندك فستهدى لك مدام دى بارى غيره من كسبها الحلال !! .. لويس : (غاضبا) ماذا تريد أن تقولى عن هذه التقية الصالحة ؟ مرجريت : لا أريد أن أقول عنها شيئا ، فأنت لا تصدق فيها كلام أحد ، ولكنى أريد أن تطمئن على الطعام الجيد الذى لا ينفد من عندها أبدا ؟ كأنما هى وزيرة التموين فى المعسكر !

لويس : الذين يترددون عليها من المؤمنين والمؤمنات يهدون إليها من نصيبهم ، تقربا إلى الله وحباً فى السيد المسيح .

مرجريت : (فى سخرية قاتلة) صحيح ؟

لويس : (يشتم غضبه) مرجريت .. إنى أسمح لك بكل شيء إلا أن تقدحى أمامى فى الصالحين والصالحات .

مرجريت : (فى حدة) وأنا يا سيدى أقبل منك كل شيء إلا أن تخدع بمثل هذه الفاجرة فتظنها قديسة .

لويس : (يلين لهجته قليلا) كانت فاء فيما مضى ، ولكنها اليوم فاجرة تقية .

- مرجريت : تجمع المؤمنين والمؤمنات هه ؟
- لويس : (فى حدة) ويلك ألم تسمعى قط بسيرة مريم المجدلية ؟
- مرجريت : مريم المجدلية .. اتق الله يا سيدى ، فتلك من حواريات السيد المسيح لا يصح أن تقرنها بهذه القوادة !
- لويس : القوادة ؟!
- مرجريت : هذا نعتها الصحيح .
- لويس : ما سمعت عنها كلمة سوء إلا منك .
- مرجريت : ممن تنتظر أن تسمع الحقيقة ؟ أمن أولئك الذين يترددون عليهم ولهم عندها مآرب ؟
- لويس : وفرسان المعبد ورجال الدين أتهمينهم أيضا ؟
- مرجريت : معاذ الله أنا لا أتهم أحدا . لعلهم مثلك يا سيدى يحسبونها مجدلية جديدة . ثم إنهم يجدون أفضل الطعام عندها ، ويسمعون الإنجيل والمزامير ، فماذا يشكون ؟
- لويس : (بعد صمت يسير) إن كان ما تزعمينه هذا صحيحا ..
- مرجريت : فى وسعك يا سيدى أن تتحرى الأمر بنفسك بل هذا من واجبك .
- لويس : (فى حيرة وذهول) إن كان هذا صحيحا ...
- مرجريت : لا شأن لى بمدام دى بارى الآن . تحرأمرها على مهل . عليك أولا أن ترفع الظلم عن هذا المسكين ..
- لويس : (شارد الفكر بعد) أحمد ؟
- مرجريت : نعم . أطلقوا سراحه ليأكل خارج معسكركم . أليس هو الذى كان يهرب لكم الطعام من عند المسلمين ؟ أفهذا

جزاؤه اليوم أن تجسوه وتجيئوه؟

لويس : (يتخلص من شروء فكره) لقد اتضح لنا أنه كان يخدعنا ويخوننا .

مرجريت : إذن فحاكموه ، فإن ثبت عليه شيء فاقتلوه وأريحوه .

لويس : لكننا بحاجة إلى الأسرار التي يطويها في صدره ، ولن نقتله حتى نستخرجها أولا منه .

مرجريت : هذا الذي تفعلونه لا يفعله غير الجلادين . أثبتوا التهمة عليه أولا ، ثم افعلوا به بعد ذلك ما تشاءون .

لويس : يا عزيزتي هذه تهمة يعسر علينا إثباتها ، لأنها تتصل بالجاسوسية ومدارها دائما على السر والكتمان .

مرجريت : إن كان عسيرا عليكم إثباتها ، فعسير عليه أيضا نفيها عن نفسه .

لويس : (بعد صمت يسير) فما السبيل إذن إلى معرفة الحقيقة ؟

مرجريت : لا سبيل غير أن تحضره هنا عندك وتستمع إلى دفاعه عن نفسه بروح العدل والإنصاف ، فما يدريك لعله يستطيع أن ينفعكم بعد في المستقبل .

لويس : (بعد صمت يسير) صدقت والله . (يدنو من الباب

الثاني فينادى) كونت بواتيه ! كنت أنجو ! كونت بواتيه !

صوت : نعم يا سيدى .

لويس : هلما إلى .

(يدخل بواتيه ثم أنجو) .

لويس : اذهب يا كونت بواتييه فأحضر لي هذا السجين الذى اسمه أحمد .

بواتييه : سمعا يا سيدى . (يخرج من الباب الثالث) .

لويس : اجلس يا كونت أنجو لتحضر معنا محاكمته .

أنجو : (يجلس) محاكمته ؟ لا فائدة يا سيدى من ذلك . إنه سيسمعنا نفس الأقوال التى يرددها .

مرجريت : يا كونت أنجو إن مولانا الملك قد قرر محاكمته ، فليس لنا أن نعترض .

لويس : أجل نريد اليوم إما أن نعدمه أو نطلق سراحه .

أنجو : أنت تعرف يا سيدى رأى فيه .

(يدخل بواتييه يسوق أحمد وهو فى حالة سيئة ، وقد

ظهرت آثار التعذيب فى وجهه والقيد فى يديه) .

لويس : (تومئ له مرجريت إلى القيد فى يدى أحمد) حلوا القيد عنه .

(يحل بواتييه عنه القيد) .

مرجريت : مره يا سيدى بالجلوس .

لويس : (لأحمد) اجلس .

أحمد : (يجلس) شكرا يا مولاي .

(تظهر بياتريس وخلفها چان على الباب الثانى) .

لويس : (يلمحهما) ادخلا إن شئتما .

(تدخلان فتجلسان . بياتريس متطلقة الوجه فى حلة

فاخرة وچان مكتبة فى ثياب الحداد) .

- لويس : (ينظر إلى أحمد نظرة قاسية) ألا تريد أن تعترف ؟
- أحمد : قد اعترفت يا مولاي بكل شيء .
- لويس : أقصد بالخيانة .
- أحمد : ما خان أحد قومه يا مولاي أبلغ من خيانتى لهم .
- لويس : بل كنت تخوننا نحن .
- أحمد : مولاي إن كنتم تريدون قتلى فأرسلوني إلى قومي ، فهم أولى بعقوبتي منكم .
- (يشير إلى أنجو ليتولى مناقشته) .
- أنجو : أنت الذى أحضرت إلينا ذلك البدوى ؟
- أحمد : نعم .
- أنجو : فأين هو الآن ؟
- أحمد : يا سيدى الكونت أنا محبوس هنا عندكم ، فكيف أعرف أين هو الآن ؟
- أنجو : لماذا لم تحضره إلينا عندما رأيت الملك قد وافق على إبحارى إلى الإسكندرية ؟
- أحمد : ما عثرت على هذا البدوى إلا ذلك اليوم .
- أنجو : كيف عثرت عليه ؟
- أحمد : كان همى أن تنتهوا من المنصورة بأسرع وقت ، قبل أن يحضر هذا السلطان الجديد توران شاه وأنتم تعلمون خوفى منه . وتلك أنانية منى لا أستطيع أن أنفيها عنى . ولكن الكونت دارتوا ، (يخالط صوته البكاء) ذلك الكونت الذى كان يحبني وكنت أحبه أكثر من أى واحد فيكم ، كان على هذا

الرأى مثلى . وقد تألم كثيرا من عدول الملك عن رأيه إلى رأيك يا سيدى الكونت حتى قال لى : وحياة المسيح إن فعلوها يا أحمد فلاعودن إلى فرنسا . فأظلمت الدنيا فى عينى وانطلقت أجول هنا وهناك فى مضارب البدو على ساحل البحر الصغير ، حتى عثرت على ذلك البدوى فأحضرتة وأنا أكاد أطير من الفرح .

(يمسح لويس دمة ترقرت فى عينيه)

أنت كنت مع الكونت دارتوا حين عبروا المخاضة ؟ :
نعم .

لماذا لم تنه عن التقدم قبل أن يتكامل عبور بقية الفيلق ؟ :
قد نهاء من هم أفضل منى من فرسان الداوية وغيرهم فلم يسمع لهم ، أفكان يسمع لى ؟ اسألوا من بقى حيا من فرسان الداوية كيف اختصم معهم الكونت وغيرهم بالجين ، حتى كادوا يفتكون به لولا حكمة مقدمهم الأخ جيل إذ قال لهم : هلموا يا إخوانى لنثبت للكونت أننا لسنا جبناء .

لويس : (قد غلبه التأثير فلم يستطع أن يمنع نفسه من الكلام)
يرحمه الله ، أنا أيضا قد أمرته بنفسى وشددت عليه فعصى أمرى .

أنجو : وأنت الذى دللته على طريق القصر ؟

أحمد : نعم .

أنجو : لم فعلت ذلك ؟

أحمد : أمرنى أن أدله أفكنت أجرو يا سيدى الكونت أن أمتنع ؟

ماذا كنتم تقولون عني لو فعلت؟ ثم إن القصر ظاهر في البلد لا يعسر على أحد الاهتداء إليه ولو بغير دليل.

أنجو : أنت الذى أغلقت السدة عقب دخولكم فناء القصر؟

أحمد : نعم. وهو الذى أمرنى بذلك فأطعته.

أنجو : أطعته وأنت تعلم أنكم ستقعون فى مصيدة.

أحمد : كلا يا سيدى الكونت. كان المدافعون عن القصر

لا يزيدون علينا إلا بقليل، فكان من رأى أن نغلق السدة

حتى لا يبيئهم مدد من الخارج.

أنجو : ولكنك ما لبثت أن فتحت السدة لما جاءهم المدد.

أحمد : يا سيدى الكونت إن الأمر ليس على هذا الوجه.

أنجو : (فى قسوة وانتصار) لقد ناداك الكونت دارتوا ألا تفتح

فعصيته، وعندنا شاهد على ذلك أتذكر شهادته؟

أحمد : لا يا سيدى الكونت أنا لا أنكر ما وقع حقا، ولو لم يشهد

على به أحد.

أنجو : (فى نشوة انتصاره) فقل لنا الآن لماذا لم تطعه فى الثانية كما

أطعته فى الأولى؟

أحمد : عصيته فى الثانية مضطرا لأتبع له ولفرسانه فرصة النجاة

بأنفسهم إذا اضطروا إلى ذلك. فقد تغير الموقف بمجيء

المدد فأصبحنا قلة وهم كثرة. وأى مدد يا سيدى

الكونت! البطل بيرس وجماعته! جمره عسكريهم كله!

أنجو : قد كنت تتوقع مجيء المدد إذ أغلقت السدة، فلماذا

أغلقتها؟ لماذا لم تدعها مفتوحة حتى إذا جاءهم المدد كان

لجماعتنا فرصة النجاء بأنفسهم كما زعمت؟

: هذا سؤال وجيه يا سيدى الكونت .

: فأجب عليه .

أحمد

أنجو

(تتعلق أبصار الحاضرين بأحمد مع اختلاف مشاعرهم نحوه) .

: كان المتوقع عندما اقتحمنا قناء القصر أن نشتبك في الحال

مع المدافعين ونلتحم معهم في قتال حاسم . إذن لربما

أبدناهم جميعا قبل حضور المدد واستولينا على القصر

فتحصنا فيه . ولكن الكونت دارتوا ، (ينشج باكيا مرة

ثانية فينقطع عن الحديث) .

أحمد

: (فى قسوة) كمل حديثك . لا تحاول أن تقطعه بهذا البكاء

الزائف ريثما تخرج حكاية من رأسك .

أنجو

: (فى عتاب) شارل ، لا تسخر من عاطفته على أخيك ،

تكلم يا أحمد .

لويس

: (يكفكف دمه ويتجلد) ولكن الكونت دارتوا كان ثملا

بخمر النصر ، فلما أن سمع أحدهم يناديه إلى المبارزة حتى

أمر فرسانه بالتوقف عن القتال ، فوقف الفريقان ينظرون

إلى المتبارزين وهما يتصاولان ويتجاولان ، حتى خيل إلينا

جميعا أننا فى حلبة مباراة لا فى ساحة معركة . واستمرت

المبارزة برهة دون أن يتغلب أحدهما على الآخر ، إلى أن

سمعت صرخة بييرس من خارج السدة فنبهتني إلى الخطر

المحدد . وترددت قليلا ثم صممت على فتح السدة

أحمد

فاندفعت لأفتحها ، فسمعت صوت الكونت ينهاني فلم
أكثر له .

أنجو : وفتحت السدة ليدخل أولئك الأبطال فيقضوا عليه وعلى
فرسانه ، ولا يبقوا منهم على أحد ؟ هذا كان قصدك .

أحمد : يا سيدى الكونت قد شرحت لكم قصدى ، وكان فى
الإمكان وقد فتحت السدة على مصراعها أن يتم ما قصدت
إليه ، لولا أن الكونت دارتوا استنكف أن يفر ، فاضطر
رجالاه أن يثبتوا معه ، فكان الذى كان .

(يغطى لويس وجهه من التأثر والحزن) .

أنجو : لكنك أنت نجوت يا بطل الأبطال !

أحمد : أنا يا سيدى الكونت ما كنت أقاتل . كنت متنكرا فى زى
درويش . سلوا رفيقى دى بوجو يشهد لكم بما ذكرت .

بياتريس : الكونت دى بوجو ! (تند منها ضحكة فيسرى الضحك
منها إلى بواتيه ثم مرجريت ثم لويس ثم أنجو نفسه ، ثم
تضحك جان ضحكة مبتسرة سرعان ما وأدتها وعادت
إلى عبوسها واكتسابها) .

أنجو : (يعود إلى صرامته) اشرح لنا الآن كيف تسنى لك إنقاذه
لو لم تكن على صلة بمن فى القصر ؟

أحمد : الكونت دى بوجو موجود . فاسألوه هو ؟ .

بياتريس : (ضاحكة) الكونتيس دى بوجو ! الكونتيس !
(يضحك الآخرون) .

أنجو : (يغالب ضحكه) قد سألناه ونريد أن نعرف الحقيقة

منك أنت .

أحمد : (مالكا زمام نفسه) لا حق لكم أن تضحكوا منه . لقد كان يقاتل ببسالة منقطعة النظير إلى ما قبل نهاية المعركة بقليل ، إذ صرعت جواده رمية سهم فوق هو على الأرض قريبا من الشجرة التي كنت أختبئ وراءها ، فنظرت فلم أجد أحدا انتبه له لما شغلهم من نشوة النصر ، فجذبتهم وانسللت به إلى حظيرة غنم في أسفل القصر ، فاختبأنا فيها .

بياتريس : (ضاحكة) حظيرة غنم !

(يتسهم الآخرون ويومئ لها زوجها أن اسكتي) .

أنجو : ومن أين جئت له بتلك الملابس الحريرية ؟ (تنفجر بياتريس ضاحكة فينفجر الآخرون ضاحكين) .

أحمد : (وحده لم يضحك) جاءتنى بها حبيبتى ناعسة من ثياب جوارى القصر . وقد ناشدتها أن تهرب معنا ولكنها خافت فلم تقبل . اسألوا الكونت دى بوجو ...

بياتريس : (مقاطعة) لو قبلت ناعسة هذه لانضم إلى معسكرنا ثلاث نسوة جدد !

(يقهقهون ضاحكين) .

لويس : (يومئ لهم في صرامة أن اسكتوا فيسكتون) أحمد قد عفوت عنك .

أحمد : مولاي ... إنما العفو عن ذنب ارتكبته ، وأنا برىء .

لويس : فقد قضيت ببراءتك .

أحمد : شكرا يا مولاي . (يشب نحو لويس) دعنى أقبل يدك .

(دار ابن لقمان)

(يقبل يده) .

(يبدو على الجميع السرور ما عدا أنجو) .

مرجريت : نرجوك يا أحمد أن تسامحنا فيما كان ، وتعود معنا إلى سابق إخلاصك .

أحمد : مولاتي الملكة . ما دام سيدى الملك قد برأني فقد نسيت كل شيء إلا سابق فضله على . وأنا فى طاعته حتى النهاية .

أنجو : إن شئت أن تثبت إخلاصك للملك ، فأسعفنا فى الحال بقدر كبير من الطعام .

لويس : أجل يا أحمد فإن السفن أبطأت علينا من دمياط .

أحمد : أعطوني الأسلحة .

أنجو : الأسلحة ؟

أحمد : لأقايضهم بها كالعادة .

أنجو : سنعطيك ذهباً .

أحمد : أو قد نسيت يا سيدى الكونت أنهم ما عادوا يقبلون

الذهب منذ زمان ؟

أنجو : لكن ...

أحمد : اجمعوا لى من الأسلحة التالفة التى لم تعد صالحة عندكم ،

فسأضحك بها عليهم .

لويس : اذهب به يا كونت أنجو فأعطه ما يريد .

أحمد : ومر لى يا سيدى بجوادين قويين .

چان : أعطوه ثلاثة أو أربعة !

لويس : أعطه يا كونت أنجو كل ما يريد .

- چان : أسرع يا أحمد في الحال ، في الحال !
(يخرج أنجو وأحمد) .
- لويس : واركب أنت يا كونت بواتيه فاستطلع لنا أخبار السفن القادمة من دمياط .
- بواتيه : سمعا يا سيدى . (يخرج) .
- لويس : (يتمم) ترى ماذا أخرها حتى اليوم ؟
(يرسم علامة الصليب ثم يخرج من الباب الأول في صمت) .
- بياتريس : (محاكية صوت چان) أسرع يا أحمد ! في الحال ، في الحال ! هل هذا يليق ؟
- چان : (غاضبة) يليق أو لا يليق ... ما شأنك أنت ؟
- بياتريس : لا يصح أن تظهرى له شرهك إلى الطعام ...
- چان : شرهى إلى الطعام ! أنا لم آكل منذ أسبوع غير التين المجفف .
- بياتريس : عندك لحم الخيل فكله .
- چان : كلا لا آكل من لحم الجيف .
- بياتريس : الجيف !
- مرجريت : لا حق لك يا كونتس بواتيه .. هذا لحم يأكل منه الملك .
- چان : ولوا كيف تقبله نفسى وأنا أرى جيف الخيول في كل مكان ؟
- (تنشج باكية) آه يا للمصير التعس الذى نحن فيه !
- بياتريس : اسمعى يا كونتس بواتيه . لماذا لا تذهبين إلى صاحبك مدام دى بارى فتجدى عندها ما لذ وطاب ؟

- چان : كلا لن أذهب إليها .
- بياتريس : ماذا يمنعك ؟
- چان : حذرني ألفونس منها ، وتوعدني إن علم أنني ذهبت إليها مرة أخرى .
- بياتريس : ومن أين له أن يعلم ؟ اذهبي إليها من ورائه .
- چان : (يفيظها ابتسام مرجريت لمعابثة أختها فتقول لبياتريس)
اذهبي أنت إن شئت ، فنحن في تولوز لا نصادق أحدا أو نواده إلا إذا كان أزواجنا راضين عنه .
- مرجريت : (تدرك تعريضها بها) معذرة يا كونتس بواتيه . هل تعنين أن الأزواج هناك هم الذين يختارون العشاق لزوجاتهم ؟
- (تفهقه بياتريس ضاحكة) .
- چان : ما هذا يا صاحبة الجلالة ؟
- مرجريت : هذه بتلك !
- چان : (في استخذاء) أنا ما قصدت أى سوء ، ولكن استشارتني إذ أشارت على بالذهاب إلى مدام دى بارى وهى تعلم أنها سيئة السمعة .
- مرجريت : كنت تقولين عنها غير ذلك يا كونتس بواتيه .
- بياتريس : ووجدتك في قَرَم إلى الطعام الجيد ، وعندها هى الطعام الجيد !
- چان : (تعود إلى بكائها) وا بؤساه ! نقاسى الجوع ولا يسمح لنا حتى بالشكوى منه !

مرجريت : (فى شيء من العطف) اصبرى قليلا يا كونتس بواتيه ،
فعما قريب تأتينا الميرة من دمياط .

بياتريس : فتأكلين وتشبعين .

چان : ماذا يضمن وصول السفن إلينا ؟ سيعترضها العدو فيستولى
عليها كما استولى من قبل على الاثنين والخمسين سفينة .

بياتريس : (مرتاعة) رب اكفنا السوء ! ألا تكفين عن تشاؤمك هذا
الذى جر علينا الكوارث ؟ ماذا جرى لك ؟ لا نراك إلا
عابسة أو شاكية . ما كنت هكذا من قبل .

چان : وأنت ما كنت بهذا النزق والعبث من قبل .

بياتريس : أفرح وأتسلّى .

چان : ونحن فى هذه المصيبة ؟

بياتريس : لم لا ؟ ألا تستطيعين أن تفعلى مثلى ؟

چان : كلا لا أشتهى أن أكون كالبهلوانات والمهرجين .

(تشير إلى حلة بياتريس) .

بياتريس : خيرا من أن تكونى كالبومة السوداء التى تنعق فى الخرائب .

(تشير إلى ثياب چان) .

چان : لو كان عندك قليل من الذوق للبست السواد مثلنا حدادا
على شقيق زوجك .

بياتريس : لبست السواد أسبوعين عليه ، وهذا يكفى .

چان : يكفى ! أنت أولى الناس بالحزن عليه !

بياتريس : (فى تحد مستتر) لماذا يا كونتس بواتيه ؟

چان : (فى خبث) ألا تعرفين لماذا ؟ لأنه كان يميل إليك .

بياتريس : (في صراحة) لكنى ما كنت أميل إليه مثل غيرى !

چان : ماذا تعنين ؟

بياتريس : أعنى أن التى يميل إليها ليست أحق بالحزن عليه من التى تميل إليه !!

مرجريت : (تنهرهما) كفى ! لا يصح أن تتحدثا مثل هذا الحديث عن رجل مات .

بياتريس : هى التى بدأت .

چان : أنا ما قصدت أى سوء . إنما كنت ألومها على خلع السواد قبل الأوان .

مرجريت : إنها عروس بعد يا كونتس بواتيه .

چان : إذن فلتتركنا فى حالنا يا صاحبة الجلالة .

بياتريس : (تنسى غضبها سريعا وتعود إلى مزاحها ومعايشتها) أليس من واجبى أن أشركك معى فى شهر العسل ؟

چان : فى شهر عسلك المشئوم الذى قضيته فى قبرص ؟ تمتعى به لنفسك !

بياتريس : (ماضية فى مزاحها) على فكرة ، أنت تحبين العسل يا كونتس بواتيه ، فلماذا لم توصى أحمد أن يحضر لك قرصا من العسل ؟

چان : من فضلك يا كونتس أنجو أنا لم أعد أحتمل مزاحك .

بياتريس : ألا تعلمين أنه نحال يرى النحل ؟

چان : (محتدة) أوصيه أنت أن يجىء بجيش من نحله لنحارب به المسلمين !!

بياتريس : (تفهقه ضاحكة) نكتة حلوة ! صارت البومة تنكت !
چان : (تهب ثائرة) بياتريس ! ابحنى لك عن لعبة أخرى تتسلين
بها غيرى .

مرجريت : (واقفة بقرب الباب الأول حيث قامت لتفقد الملك)
صه .. الملك يصلى فلا ينبغي أن نشوش عليه .

چان : (تعود إلى عبوسها وتطيرها) يصلى !! إذن فلتتوقع كارثة
جديدة تحل علينا ككارثة المخاضة !

بياتريس : يا قليلة الدين أين إيمانك الذى تتشدين به ؟
چان : تركته فى تولوز !

بياتريس : عند بناتها اللاتي يتسلل إلى مخادعهن العشاق ؟
چان : (غاضبة) يا صاحبة الجلالة إن لم تكفى عنى أختك
فلأشكونها إلى الملك .

بياتريس : إن فعلت لأخبرنه بما قتلته الساعة عن صلاته .
مرجريت : (واقفة تتطلع من إحدى الفتحات التى فى الجانب
الأيسر) صه ، هذا أحمد قد عاد ! (تنهض بياتريس
وچان فتطلعان أيضا) .

چان : عاد هكذا سريعا ؟ ماذا جرى ؟

بياتريس : (لچان) أطاع أمرك فأسرع !

مرجريت : (لبياتريس) ها هو ذا قد أقبل مع زوجك . سأخطر
زوجى الملك . (تخرج) .

چان : وزوجى أين ذهب ؟

(يدخل أنجو وأحمد من الباب الثالث) .

- أنجو : أين مولانا الملك ؟
بياتريس : موجود .. فى مخدعه .
چان : (متطيرة) يصلى !
(يدخل لويس ومرجريت) .
لويس : ماذا وراءك يا أحمد ؟ أحضرت الطعام ؟
أحمد : اتفقت على الصفقة يا مولاي ولكنى لم أحضر شيئا بعد .
سمعت نبأ أطار لبي . فرأيت أن أعجل إليك لأنذرك .
لويس : ماذا سمعت ؟
أحمد : إنهم أنزلوا سفنا جديدة فى بحر المحلة ، لتعرض سفنكم
القادمة من دمياط .
جان : (تتمم) يا للكارثة ! هذا ما توقعته من قبل .
لويس : (متضايقا) كونتس بواتيه اتركينا قليلا .. لا تشغلينا
بتشاؤمك .
چان : (تنسحب نحو الباب الثانى وهى تتمم) كل هذا من
صلاتك . (تخرج) .
لويس : وماذا ترى يا أحمد ؟
أحمد : ابعث يا سيدى من يحميها .. ابعث فصيلة صوب دمياط
لتحميها فى الطريق .
لويس : أجل . يجب إنقاذها بأى سبيل .
أحمد : عن إذنك يا مولاي .. سأنطلق الآن لإحضار الطعام .
لويس : مع السلامة . (يخرج أحمد) .
مرجريت : لو لم تحبسوه لكان أنذركم من مدة .

- لويس : (لأنجو) كل هذا منك يا شارل .
أنجو : يا سيدى كان هذا رأيك أيضا فيه .
لويس : عليك الآن أن تنطلق بكوكبة من الفرسان لتنقذوا السفن
بأى ثمن .
أنجو : ألا تخشى يا سيدى أن تكون هذه مكيدة ، لنقع فى كمين
منصوب لنا فى الطريق ؟
لويس : دع عنك هذا . ما جربنا عليه كذبا . كان لا يندرننا بشيء إلا
وقع . انطلق فى الحال .
أنجو : (فى غير اقتناع) أمرك يا صاحب الجلالة .
(يخرج)
(تعود چان فى قلق واضطراب) .
چان : أين يا سيدى زوجى ؟
لويس : (فى ضيق) ويلك ألم أبعثه أمامك ؟
چان : لماذا لم يعد حتى الآن ؟
لويس : (فى حدة) ما يدرينى ؟ أنا هنا فى الخيمة معك . (يثور
هائجا) اخرجن جميعا من عندى . اتركننى هنا وحدى !
(تخرج النسوة الثلاث فى صمت من الباب الثانى)
(يقف لويس هنيهة واجها ثم يركع أمام صورة المسيح
المعلقة فى الركن الأيسر . وتظهر چان على الباب الثانى
كأنها تسترق النظر إلى الملك ، فلما رآته يصلى وضعت
كفا على كف فى تطير وأسف ، إلى أن تظهر مرجريت
خلفها فتجديها خارج الباب) .

لويس : (يدعو في خشوع وابتهاال) يا إلهى المسيح أنقذنى وأنقذ
شعبى !

(يدخل بواتيه وأنجو مكتئين فيقفان صامتين ينتظران
فراغ لويس من صلاته) .

لويس : يا إلهى المسيح انصرنا على هؤلاء الكافرين ، آمين .
بواتيه : سيدى الملك .

لويس : (ينهض ملتفتا) أنتم معا ! ماذا حدث ؟
(تدخل النسوة الثلاث فى قلق واضطراب) .

الاثنان : (فى وجوم) ... ؟

لويس : تكلما ماذا عندكما ؟

بواتيه : سَفُننا يا سيدى .

لويس : ما بالها ؟

بواتيه : وقعت كلها فى يد العدو .

لويس : الاثنان والثلاثون سفينة ؟

بواتيه : نعم وقتل بحارتها جميعا .

لويس : كيف يحدث هذا ؟ أين الحاميات التى تركناها على طول

الطريق ؟ كيف لم تفعل شيئا لحماية هذه السفن التى تتوقف

عليها حياتنا اليوم ؟

بواتيه : الحاميات تحرس مواقعها يا سيدى ليبقى الطريق مفتوحا

بيننا وبين دمياط .

لويس : ويلك ما فائدة ذلك إن لم تستطع أن تحمى لنا السفن ؟

بواتيه : كانت مباغطة للجميع يا سيدى ، فلم يخطر ببال أحد منهم أن

العدو سينزل شوانيه المقاتلة من فرع النيل الذى يسمونه بحر المحلة ، والذى يأتى من البر الآخر .

لويس : يا إلهى المسيح ، عونك ونصرك . (يتهاوى على كرسيه) .

چان : (تصيح باكية) يا للمصيبة يا للكارثة ! سنموت جوعا فى

هذا المكان ، سنأكل جيف الخيول ، أنقذونا من هنا بحق المسيح . ارجعوا بنا إلى بلادنا . بلادنا تغينا .. لا نريد بلاد الآخرين .

بواتيه : (يأخذ بيد چان) حسبك يا چان .. حسبك .

چان : ليتنا بقينا فى فرنسا يا ألفونس ، ماذا جاء بنا إلى هذه البلاد ؟

لويس : (يصيح مفضبا) لا أريد نحيبا هنا ولا بكاء . من شاء أن

يرجع إلى فرنسا فليغرب من وجهى !

بواتيه : معذرة يا سيدى ، إنها ذات قلب ضعيف . (يحتضن چان

ويواسيها) .

لويس : هذا سبب هزيمتنا . ما كان ينبغى أن يكون بيننا ضعفاء

القلوب . (ينظر إلى چان) ولا مرتكبو الخطايا والذنوب

(يهم أن ينظر إلى مرجريت ولكنه يعدل عن ذلك) ولا

القادة الغافلون النائمون عن حركات العدو . (يستقر

نظره على بواتيه وأنجو) .

أنجو : معذرة يا سيدى لا وقت لدينا الآن للتعاب والتلاوم . علينا

الآن أن نتدبر أمرنا وننتهى إلى قرار حاسم .

بواتيه : أجل يا سيدى . لقد أصبح بقاؤنا هنا محفوفًا بالخطر ، وكل

دقيقة نتأخرها عن الرحيل تدنينا خطوة من الكارثة .

أنجو : كل يوم يموت من رجالنا كثير وينفق من خيولنا كثير ، فإن
نجدونا من سيوف العدو فلن ننجو من غائلة الجوع والمرض .
لويس : ويحكمما أو قد استولى عليكمم اليأس من رحمة الله ؟ ألم تعلمم
أن الله يمتحننا ولكنه لن يتخلى عنا ، وأن معجزة من لدنه
تبدل كل شيء ؟ أم أنكمم قد أصبحتمم من هراطقة هذا
العصر ؟

بواتييه : كلا يا سيدى إنى أو من بالمعجزة ، وأعتقد أن الله قد أتاحها
لنا يوم احتللنا دمياط دون قتال ، ثم أتاحها لنا مرة ثانية يوم
عُرض علينا ذلك الصلح الشريف الذى يمنحنا بيت المقدس
وعسقلان وطبرية دون عناء ولكنم رفضناها ، فكان عاقبة
رفضنا ما نحن فيه اليوم . فلنرحل اليوم عائدين إلى دمياط ،
ولنعرض الصلح على السلطان الجديد ونحن أقوياء فى
حصوننا ، وأسطولنا إلى جانبنا ، فعسى أن تتحقق لنا
المعجزة الثالثة .

أنجو : كلا لا تتحقق المعجزة بغير فتح القاهرة ، لا والمسيح لا نقبل
صلحا ولا تفاوض فى صلح حتى نستولى على بابل
الجديدة ! فلنبهر من دمياط إلى الإسكندرية ، فإن المعجزة
تنتظرنا هناك !

بواتييه : لو كنت صادق الإيمان لعلمت أن الله الذى تنتظر من لدنه
المعجزة ، يحب السلام ويدعو إلى السلام .

لويس : كلا ، لا تظنوا أنى جئت ألقى سلاما على الأرض بل سيفا .
هكذا قال السيد المسيح .

- أنجو : أسمع يا كونت بواتيه ؟ أينما الآن أصدق إيماناً ؟
- بواتيه : والله ما أنت من الإيمان في شيء ، ولكنك تطمع أن تقيم
لنفسك عرشاً في مصر ولو هلك الجيش كله !
- أنجو : وأنت والله لا يعنيك هلاك الجيش ولا سلامته ، وإنما هزك
الشوق إلى مجالس لهوك وشرابك ، فأردت أن تعود إلى
فرنسا بأسرع ما يمكن .
- بواتيه : هذا خير من أن تفنى الجيش كله في سبيل مطامعك .
- لويس : على رسلك يا كونت بواتيه . إني لن أنزل عن عرش هذه
البلاد لأحد ، بل سأحتفظ به لنفسى .
- بواتيه : فهو يطمع يا سيدى أن توليه حاكماً عليها من قبلك .
- لويس : كلا أنا عازم أن أقيم في هذه البلاد .
- الاثنان : (في صوت واحد) وفرنسا يا سيدى ؟؟
- لويس : فرنسا ! (يبدو الأسى في وجهه ثم يتجلد) سأتركها
لأمكما حتى تموت !!
- (يخيم الصمت على الجميع) .
- مرجريت : (تنقله الموقف) يا سيدى ، ألا ينبغي أن تدع التفكير في
هذا حتى يتم لك فتح القاهرة ؟
- لويس : (في استياء) لا بد أن نفتحها بمشيئة الله .
- مرجريت : إذن فارحلوا في الحال إلى دمياط قبل أن يحال بينكم وبينها
فلا تجدوا إليها سبيلاً ، ثم قررُوا في دمياط إما الإبحار إلى
الإسكندرية وإما السعى إلى الصلح . (تنظر إلى كل من
بواتيه وأنجو) .

- الاثنان : أجل يا سيدى هذا هو رأى .
- لويس : (بعد صمت يسير) فلتكن مشيئة الله ، اذهب يا كونت أنجو فأذن المعسكر بالرحيل .
- أنجو : هل لى يا سيدى أن آمر بحرق أخشابنا التى على البحر حتى لا يستعملها العدو فى العبور إلينا عقب الرحيل ؟
- لويس : أصبت .. مرهم بحرقها فى الحال .
- (يطفى السرور على الجميع ، وتنهض بياتريس فتقبل الحاضرين واحدا بعد واحد فى خفة ومرح ، ثم تجذب يد زوجها ليراقصها) .
- أنجو : يا عزيزتى دعينى أولا أمض لتنفيذ أمر الملك . (يتملص من يدها ويخرج) .
- بياتريس : (تلهنو من بواتيه) ارقص معى أنت إذن .
- چان : (معترضة) ما هذا ؟ أهذا وقت الرقص ؟
- بياتريس : ألا يحق لنا أن نحتفل بالخلاص من هذا المكان ؟
- چان : ما يدريك ماذا يكمن لنا فى الطريق ؟
- (يتطير الحاضرون من هذه الكلمة فيعروهم الوجوم والكآبة) .
- لويس : (يرسم علامة الصليب فيحذو الآخرون حذوه) هلموا نصل جميعا للرب . (يتوجه نحو صورة المسيح المعلقة فيجثو أمامها فى خشوع ، ويحذو الآخرون حذوه ما عدا چان فإنها تتململ كأنها مكرهة على ذلك)
- (تستمر الصلاة برهة طويلة وهم يدعون فى سرهم دون

جهر، ثم يجهر لويس بالدعاء .

لويس : يا إلهنا المسيح انصرنا على أعداء الصليب ، يا أبانا في
السماء آتنا معجزة تقلب هزيمتنا نصرا وجوعنا شبعاً
ونخوفنا أمناً ومرضنا عافية . إلهنا أرنا برهانا على رضاك عنا
... أرنا برهانا على أنك استجبت لدعائنا .. برهانا واضحاً
نراه بأعيننا ، آمين !

الجميع : آمين !

(يظهر من فتحات الخيمة ضوء النيران ودخانها من
بعيد)

(ستار)

الفصل الثالث

المشهد السادس

في القصر السلطاني بالمنصورة .
نفس المنظر كما في المشهدين الثالث والرابع .
(يرفع الستار فري شجر الدر واقفة قريبا من الباب
الأول) .

الوقت أول الصباح

شجر الدر : سلافة .. يا سلافة !
سلافة : (صوتها من الداخل) لبيك يا مولاتي .
شجر الدر : انزلي فانظري هل فرغ الملك وأخواه من حمامهم ؟
سلافة : (صوتها) سمعا يا مولاتي .
شجر الدر : (تتنهد) واهاً عليك يا فخر الدين ! ليتك اليوم تبصر
الفرنسيين وهو في أيدينا أسير . لقد تنبأت بذلك ورسمت
لنا كيف نعامله ، ولكنك لم تنبئنا ماذا نفعل بالسلطان إذا
طغى في البلاد وأكثر فيها الفساد . (تتوجه نحو الشباك
فتطل قليلا على فناء القصر ، ثم تستدير في أسى وتدلف
نحو الأريكة وهي تتمم) يا إلهي إلام تنتهي بنا الأمور ؟؟
قبل معركة القصر بليلة واحدة فقط .. كان هنا معي ..
جالسا على ذلك المقعد .. يبادلني الحديث .. ملء السمع

وملء البصر.. فأين هو الآن؟ ما أشبه الحقيقة بالخيال
(تنظر إلى الباب الأول) هيه هل فرغوا من حمامهم
يا سلافة؟

سلافة : (صوتها) نعم يا مولاتي.. هم الآن في القاعة الوسطى
يتناولون الفطور.. معذرة يا مولاتي، أحمد النحال يستأذن
عليك.

شجر الدر : (يستبد بها الفرح) أحمد! أين هو؟
سلافة : (صوتها) في الدهليز تحت.

شجر الدر : قولي له يصعد.. انتظري يا سلافة.. ألم يسألك عن
ناعسة؟

سلافة : (صوتها) بلى سألتني عنها فقلت له : عند مولاتنا فوق.
شجر الدر : أحسنت. قولي له يصعد إلى.
سلافة : (صوتها) سمعا يا مولاتي.

شجر الدر : لا بد أن أزوجهما في الحال وليكن ما يكون. (تطرق
مفكرة ثم تنظر فجأة نحو الباب) ادخل يا أحمد.. ادخل
يا بنى.

(يدخل أحمد وتتقدم نحوه مرحبة) .

أحمد : (يقبل يدها في احترام) الحمد لله يا مولاتي إذ أنت بخير.
شجر الدر : الحمد لله على سلامتك. أين غبت عنا طول هذه المدة؟
شهرًا أو أكثر.

أحمد : ستة وعشرون يوما بالعد والتمام. كنت عندكم هنا قبل
المعركة.

شجر الدر : (تجلس على الأريكة وتوميء له بالجلوس) ولماذا لم تعد عقب المعركة ؟ لقد جعلتنا في قلق شديد عليك ، فأين كنت يا بنى ؟

أحمد : (يجلس على مقعد أمامها) كنت في دمياط يا مولاتي مع كتائب المطوعة .

شجر الدر : هلا عدت أولا لنطمئن عليك ، ثم لتحكى لي حقيقة ما جرى في المعركة حتى أستهدى بذلك فيما كنت أستقبله من الشئون ؟ حتى صاحبك جوهر الفخرى التمسته فلم أقع له على أثر .

أحمد : هو في دمياط يا مولاتي . رحل معي إلى دمياط .

شجر الدر : ويل لكما . هلا حضر أحدكما عندي . ألا تعلمان أني لا أثق كثيرا بما يرويه لي هؤلاء الأمراء المماليك ؟

أحمد : معذرة يا مولاتي ، كان سفرنا إلى دمياط مما لا يمكن تأجيله . لقد كان علينا أن نجتمع الكتائب وننظمها لتعاون عساكر السلطان في استرداد دمياط ، قبل أن يفیق حاميتها الفرنج من صدمة الهزيمة .

شجر الدر : (في سخرية) ما شاء الله : ها هو ذا سلطانكم قد استردها بعسكره ، فأقام بفارسكور يحتفل بأعياد النصر ! في برجه الخشبي الذي بناه هناك !

أحمد : ما كان في ظننا أن يرتكب السلطان هذه الخيانة . لقد كنا متفقين معه على أن نسبق عسكره إلى دمياط لنمهد لهم السبيل ونكون ظهيرا لهم عند الهجوم على المدينة . فإذا هو

يتراخى فى فارسكور ثم يسرّح عسكره ويوقع ذلك الاتفاق
الهزىل مع ملك الفرنج .

شجر الدر : لا همّ له غير مال القدية . ماذا يعنيه وراء ذلك ؟ سىان عنده
أن يجلو الصليبيون من بلاد الشام أو يبقوا فيها إلى الأبد .
أحمد : أجل لقد أضاع على الأمة فرصة ليس لها مثيل . أتدرين
يا مولاتى ماذا يصنع هناك فى فارسكور ؟

شجر الدر : اتخذ له ماخورا فى المكان الذى قدسه جلال النصر ، واتصل
بقواده من الفرنج لتدير له ذلك الماخور .
أحمد : أى والله يا مولاتى ، لكن ممن سمعت ذلك ؟

شجر الدر : من الأمراء المماليك . لقد صاروا اليوم يروون لى فضائحه
بعد ما أدركوا ألا مقام لهم عنده ، وأنه لا يعتمد إلا على
أوغاده الذين جاء بهم من ديار بكر .

أحمد : وهل أخبروك أيضا أن تلك القواده هى التى توسطت لديه
حتى رضى أن ينزل لهم عن المطالبة بإماراتهم فى الشام ،
واكتفى بتسليم دمياط والقدية ؟

شجر الدر : (فى دهش) هل وقع هذا حقا ؟
أحمد : نعم .

شجر الدر : عجباً ! لماذا كتموا ذلك عنى ؟

أحمد : أغلب الظن يا مولاتى أنهم يجهلون هذا السر وأن حسام
الدين بن أبى على الذى كان يقوم بالسفارة بين السلطان
والفرنسيين قد كتمه عنهم .

شجر الدر : لا غرو فهو ما زال يتزلف إلى توران شاه ولم يطرحه

توران شاه بعد أن اطرح الآخرين . هذا الذى كان يحسد
فخر الدين ويزعم أنه ند له . تبّاً له من متملق وضيع .. لكن
خبرنى يا أحمد كيف علمت أنت بهذا السر ؟

أحمد : كنت يا مولاتى مع الفرنسييس حينما أرهقه التعب والمرض
فى ميدان المعركة ، فقاده رجاله إلى الوكر الذى فتحت هذه
المرأة فى تل المنية منية عبد الله ، وهناك حضر إليه حسام
الدين حيث جرت المفاوضة بينهما ، فأصر الملك على رفض
الشرط الخاص بتسليم إماراتهم بالشام ، لولا أنه فوجئ بعد
قليل باستسلام جنوده الذين يقاتلون فى الميدان فذهل
ووهل ، ولم يلبث أن استأسر هو ومن معه . فسمعت المرأة
حينئذ تقول لباروناته المحزونين . أيها السادة إن كنتم خائفين
على إماراتنا بسوريا فاطمئنوا . سأعرف كيف أجزر
سلطانهم هذا من رجليه فيوافق لنا على ما نريد .

شجر الدر : (بعد صمت يسير) إذن فالفرنسييس صادق إذ زعم أنه لم
يأمر جنوده بالاستسلام ، وأن جنديا خائناً منهم هو الذى
افترى لهم هذا الأمر عليه .

أحمد : نعم هو صادق فى ذلك ، إلا أن ذلك الجندى واسمه مارسيل
كان من حرسه الخاص ، ولم يكن خائناً بل أراد إنقاذ حياته .

شجر الدر : كيف ؟

أحمد : (يتسم قليلاً) تذكرين يا مولاتى أن فخر الدين رحمه الله
قد رسم لنا فى خطته أن يقع الفرنسييس فى أيدينا حياً ،
وكذلك أكناده وباروناته .

شجر الدر : (فى اهتمام) نعم نعم .

أحمد : ولكن السلطان لا يدرك قيمة ذلك . فما أن ضاق من طول

القتال ومن رفض الفرنسيس شروط الهدنة ، حتى دبر

جماعة من رجاله ليكبسوا ذلك المكان عليه فيغتالوه أثناء

مفاوضة حسام الدين له . فلما بلغنى ذلك اتصلت بذلك

الجندي مارسيل لما عرف من شدة إخلاصه لسيدته ، فقلت

له : إن المسلمين كما ترى قد أحاطوا بنا من خلفنا ومن

أمامنا ، فلا مناص لنا من الاستسلام إن شئنا أن ننقذ حياة

الملك ، فادع الجنود بأمره إلى إلقاء السلاح حتى لا يخسروا

المعركة ويخسروا معها حياة الملك .

شجر الدر : (فى دهش وإعجاب) وى ! وى ! وى ! أنت إذن وراء

كل هذا ونحن لا نعلم ، والفرنسييس نفسه لا يعلم !

أحمد : أنى له أن يعلم يا مولاتى وقد قتلوا مارسيل المسكين قبل أن

يشرح لهم الحقيقة ؟

شجر الدر : بوركت يا بنى . لك أن تفخر منذ اليوم أنك بحيلتك هذه قد

أنهيت القتال وأوقعت فى قبضتنا مائة ألف أسير .

أحمد : إن شئت الحق يا مولاتى فإن المعركة كانت ستنتهى حتما

بإبادتهم واستسلامهم ، فقد كانوا فى أسوأ موقف ،

والمسلمون محذقون بهم من كل جانب .

شجر الدر : هذا حق ، ولكن لا شك أن عملك هذا عجل بذلك . لقد

والله قمت بعمل عظيم .

أحمد : لكن يا مولاتى ما الفائدة ؟ أضاع توران شاه كل ما كسبناه

إذ وَقَّعَ ذلك الاتفاق الهزيل ، وباع شرف الأمة في سوق
اللذة والفجور .

شجر الدر : (في أسى) ويا ليتة اكتفى بمن عنده من الفواجر ، ولم ييئس
رسله في طلب الحرائر إلى برجه في فارسكور .

أحمد : (في اضطراب وقلق) أين ناعسة يا مولاتي ، فإني لم أرها
اليوم ؟

شجر الدر : (تلحظ اضطرابه) لا تخف يا بني .. إنها في أمان .
أحمد : (ينسى تحفظه أمامها) كلا يا مولاتي لن أطمئن عليها حتى
تفى لي بما وعدت .

شجر الدر : الحمد لله إذ جئت اليوم ، فقد قررت أن أعجل بتزويجها
منك حتى لا يطمع فيها هذا الداعر .

أحمد : شكرا لك يا مولاتي ، فأين هي الآن ؟
شجر الدر : (تخفض صوتها) صه .. لا ينبغي أن يعرف أحد . لقد
هرَّبْتُها من هنا إلى بيت عز الدين أيك ، لتقيم فيه سرا بين
أهله وأولاده .

أحمد : (شارد الفكر) هل كلكم السلطان في أمرها مرة
أخرى ، بعد أن قلت له إنها ابنتك وليست مملوكة ؟

شجر الدر : نعم .. أرسل يطالبني هذه المرة بأن أبعثها إليه ليتزوجها
بفارسكور .

أحمد : والله ما هو بقاصد زواجها وإنما يريد امتنانها بأي سبيل .
(يتبأ للقيام) هل لي الآن يا مولاتي أن أزورها هناك ؟

شجر الدر : انتظر قليلا . ألا تشتهي أولا أن ترى أصحابك الفرنج ، فهم

ضيوف على زوجاتهم في القصر . هذا يوم أحد .

أحمد : لا يا مولاتي لا أريد أن أراهم .

شجر الدر : لماذا؟

أحمد : أنجبل منهم .

شجر الدر : (مداعبة) تخجل منهم أم تتحرق شوقا إلى ناعسة؟

أحمد : (باسمها) الأمران معا يا مولاتي .

شجر الدر : سلّم لي عليها يا أحمد وقل لها : عما قريب سينتهي كل شيء .

أحمد : سأفعل يا مولاتي .

شجر الدر : مع السلامة . (يخرج أحمد من الباب الثاني) (يدخل

الطواشي جمال الدين) ..

شجر الدر : ماذا فعل ضيوفك يا جمال الدين ؟ ألم ينتهوا بعد من

فطورهم ؟

جمال الدين : قد انتهوا يا مولاتي ، فهل أعيدهم إلى دار ابن لقمان ؟

شجر الدر : ويلك لم هذه العجلة ؟

جمال الدين : قد استحموا واستراحوا وأفطروا ، فماذا يريدون بعد ؟

شجر الدر : اصعد بهم لأتحدث قليلا معهم ومع زوجاتهم .

(يهز جمال الدين رأسه ، ويخرج في غير ارتياح) .

شجر الدر : (تتمتم) خائف أن يحاسبه توران شاه ، كأنما يهتم توران

شاه بمثل هذه الأمور (تصلح الغطاء الذي على رأسها)

رحمة الله على مولاي السلطان ! ماذا كان يفعل لو رآني

أظهر هكذا لعيون هؤلاء الفرنج ! ما أعجب تصارييف

الأيام . (يدخل جمال الدين ، ثم يدخل خلفه مرجريت ثم

لويس ثم جان ثم بواتيه ثم بياتريس ثم أنجو ، وتنهض لهم
شجر الدر فتصافحهم على التوالى . ثم تجلس مرجريت
ولويس إلى جانبها فى الأريكة بينما يجلس الآخرون حولها على
المقاعد . وقد ظهر على وجوههم جميعا البشر والانبساط
ما خلا لويس فالانقباض لا يفارق وجهه . تومئ شجر الدر
لجمال الدين فينسحب (.

شجر الدر : (فى لطف) مرحبا بكم جميعا .. كيف حالك أيها الملك ؟
لويس : الحمد لله يا سيدتى السلطنة .

شجر الدر : أرجو أن تكونوا جميعا فى خير .

بواتيه : بفضلك يا سيدتى السلطنة نحن فى أحسن حال .

أنجو : هذا كرم ما كنا نطمع فيه .

شجر الدر : على قدر ما تسمح الحال . هلبقى شىء مما تشكون منه فى
دار ابن لقمان .

بواتيه : لا يا سيدتى السلطنة ، قد أصلحوا لنا كل شىء .

بياتريس : (فى دعابة حلوة) لا تصدقهم يا سيدتى السلطنة . إنهم
يتمنون لو أن أيامهم كلها آحاد !

(يضحك الجميع ويتسم لويس ابتسامة باهتة) .

مرجريت : إذن يتعب المصلون فيهم من الصلاة .

لويس : (فى لهجة جادة) الصلاة لا تتعب أحدا .

مرجريت : لا تتعب من يحبها .

چان : ولكن أخويك يا سيدى الملك لا يحبانها مثلك .

بياتريس : (فى خفتها ومرحها) فماذا كنا نصنع لو كنا كالمسلمين

يصلون خمس مرات في اليوم؟

مرجريت : إذن لما صلاها منا أحد!

لويس : لو أوجبها المسيح علينا لصليناها ولو كانت أكثر . وليست العبرة بكثرة الصلاة ولكن بما في قلوبنا من الإيمان .

شجر الدر : نحن نؤمن أيها الملك بالله الواحد الأحد ، وبجميع أنبيائه ورسله !

مرجريت : وهذا سر تسامحكم يا سيدتي السلطانة إذا تعصب غيركم .
(يظهر الامتعاض في وجه لويس ولكنه يسكت) .

بياتريس : هذا يوم سرورنا ، فلا ينبغي أن نكدره بالمواعظ الدينية .
(يضحكون ما عدا لويس) .

چان : أنت التي فتحت هذا الباب يا كونتس أنجو .

بياتريس : كلا .. أنا قلت إنهم يتمنون لو أن أيامهم كلها آحاد ، لا ليصلوا ويتعبوا بل ليتخلصوا من دار ابن لقمان !
(يضحكون) .

شجر الدر : (ضاحكة) لو استطعنا أن نجد لهم خيرا من دار ابن لقمان لأنزلناهم فيها . ولكن البلدة مكتظة بالناس من كل مكان ، فاقبلوا عذرنا ونحن آسفون .

مرجريت : يا سيدتي السلطانة لو رأيت كيف نعامل أسرانا في بلادنا وهم مسيحيون مثلنا ، لما احتجت إلى الاعتذار عن هذه الدار التي اخترتموها لقربها من القصر .

شجر الدر : شكرا أيتها الملكة على ثنائك وحسن إدراكك .

مرجريت : ما أثنت بغير الحق ، وليس من المسيحية في شيء أن ننكر

فضل ذوى الفضل .

شجر الدر : (تنهض) يوسفنى أن وقتكم عندنا محدود ، فينبغى أن أترككم وحدكم لتتناجوا فيما بينكم . خذوا راحتكم . هذا بيتكم .

(يقفون لها احتراماً حتى تخرج وتوصد خلفها الباب) .

بواتيه : رأيتم كل هذا الكرم ؟

مرجريت : الذى لا تستحقون عشر معشاره ؟

لويس : هذه سياسة !

مرجريت : (منكرة عليه) سياسة ؟

لويس : سياسة ودهاء .

(كأنما يضيق الآخرون بكلام لويس ، فينتحى كل

زوجين منهم ركناً يتناجيان فيه) .

مرجريت : يا سيدى هذه فرصة لنا لتعلم منهم الكثير . هب أن هؤلاء المسلمين قد جاءوا غزاة لبلاك ، فوقع ملكهم وأمرأؤهم وأميراتهم أسرى فى يدك ، فماذا كنت تفعل ؟ أكنت تسمح لنسائهم أن ينزلن معى فى القصر ، ثم تأذن لرجالهن أن يتصلوا بهن فيه ؟

لويس : وماذا يدعوهم لغزو بلادنا ؟ ألينشروا فيها دينهم الباطل ؟

مرجريت : هبهم فعلوا .

لويس : (فى حقد) إذن لأجعلهم عبرة لمن تحدثه نفسه بتبديل دين

المسيح !

مرجريت : هأنذا قد أقررت بفضلهم من حيث لا تريد .

لويس : (يتغير وجهه ويتوجه نحو الشباك) تعالى معى لعلك تهتدين إلى وجه الصواب . (تتبعه مرجريت) انظرى . فى هذا الفناء مزقوا شقيقى الحبيب الكونت دارتوا وفرسانه السبعين .

مرجريت : أفكنت تود يا سيدى أن يفتحوا له أبواب القصر ويجلسوه على العرش ؟

لويس : (فى استياء) قد علمت أنك لا تشاركينى فى حزنى عليه .
مرجريت : ماذا تريد منى أن أصنع ؟ هل أستطيع أن أحياه لك ؟
لويس : أنت مشغولة بالحزن على غيره !

مرجريت : (غاضبة) يا صاحب الجلالة قد اتفقنا على ألا نثير هذه الذكرى بيننا ، فاحترم الاتفاق كما أحترمه ، ولا تدفعنى إلى أن أسمعك ما تكره . إنه قد مات فماذا تريد بعد منه ؟
لويس : (بلهجة الواعظ الدينى) ابن آدم يموت وعمله يبقى بعده !

مرجريت : (محتدة) ما تعنى يا صاحب الجلالة ؟
لويس : (كالمراجع) لا تحتدى يا عزيزتى ولا تفضبى . هذه آية من الكتاب المقدس .

مرجريت : إن الله يعاملنا بما فى ضمائرنا ، فلا غرو أن تتوالى علينا هذه النكبات .

لويس : إنما ابتلينا بها من قلة إيماننا بالصليب . لقد صرنا اليوم نشنى على أعدائه .

مرجريت : أمن الإيمان عندكم أن ننكر جميل من أسدى إلينا الجميل ؟

لويس : (محتدا) أى جميل تعين ؟ أتقتيلهم لجنودنا الأسرى : كل

يوم يذبح منهم ثلاثائة وترمى جثثهم فى النهر ؟

مرجريت : هذا ما يفعله سلطانهم الشرير على غير رضا منهم ، فكلهم عليه ساخط . لقد سمعت أنت هذا من شجر الدر بأذنك .

لويس : لست مغفلا فأصدق كل ما أسمع . هذه سياستهم : إحسان هنا وتذبيح هناك حتى يفنى جيشى جميعا فيفعلوا بى وبأسرتى ما يشتهون .

مرجريت : (ضائقة الصدر) يا إلهى ماذا أسمع ؟ أأست يا سيدى قد وقعت معهم الصلح ؟

لويس : بلى وأنا مكره بعد ما أسرونى .

مرجريت : لا تحاول أن تغالطنى . فالشروط التى قبلتها كانت قبل الأسر .

لويس : كلا لقد كنت مصرا على رفضها .

مرجريت : إنما رفضت تسليم إماراتنا بسوريا ، والصلح الذى وقعته ليس فيه هذا الشرط .

لويس : أتريد أن أسلم لهم بهذا الشرط أيضا ؟

مرجريت : (فى ضيق) أوه ! إنما أريد أن أسألك ما الذى أخر حاميتك فى دمياط عن الموافقة حتى اليوم ؟

لويس : ما يدرينى لعلهم يُبصرون فى الأفق ما لا أبصر .

مرجريت : إذن فأنتم المسئولون عن مئات الأسرى الذين يقتلهم هذا السلطان المجنون كل يوم .

لويس : لا لوم عليك . قد صدقتهم إذ زعموا أن سلطانهم هذا مجنون ، وأنهم غير مسئولين عما يعمل .

- مرجريت : ليس مجنوناً فحسب ، بل هو فاسق فاجر .
- لويس : ما أحسب أن ذاك يضيره وهو كافر بالصليب .
- مرجريت : ربما لا يضيره هو ، ولكنه يمسك ويمسّ أسرتك !
- لويس : لست أفهم ما تعنين .
- مرجريت : فاعلم إذن أنه يريدني !
- لويس : يريدك أنت ؟ متى ؟ أين ؟ كيف ؟
- مرجريت : أرسل إلى شجر الدر يطالبها بأن تبعثني إليه .
- لويس : واستجابت ؟
- مرجريت : قبح الله سوء الظن . إنها طردت رسوله بعدما أسمعته أقبح الرد .
- لويس : ولماذا لم تخبرني بذلك ؟
- مرجريت : ينجلها أن تذكر لك هذا القبيح عن سلطانهم . إياك أن تفاتحها فيه ، فقد ناشدتنى أن أكتبه عنك .
- لويس : تباله .. ألا يعلم هذا اللعين أنك في شهرك التاسع ؟
- مرجريت : (في فتور) يعلم أو لا يعلم . قد طلبني وكفى !
- لويس : ألا يحتمل أن يعاود الطلب ؟
- مرجريت : اسمع يا سيدى . لقد قررت أن أرحل إلى دمياط ، لأرى بنفسى ماذا أخرج الحامية عن الموافقة على التسليم .
- لويس : أنسيت يا عزيزتى أنك أسيرة ؟
- مرجريت : قد استأذنت شجر الدر فأذنت ، وستبعث معى من يرافقنى من رجالها الأمناء .
- لويس : إن كان هذا يهم شجر الدر فلماذا لا تأذن للكونت أنجو

أو الكونت بواتيه بدلا منك ؟

مرجريت : يا سيدى ليكن عندك قليل من الإنصاف .

لويس : (متراجعا) أنت فى شهرك التاسع ، وأخشى أن يدركك
الطلق وأنت فى الطريق .

مرجريت : سأكل الأمر إلى الله ، ألا تؤمن يا سيدى برعاية الله ولطفه ؟
لويس : فليكن يا عزيزتى ما أردت .

(يدخل الطواشى جمال الدين فيراع الجميع) .

لويس : ها هو ذا عبدها الكريه قد جاء !

مرجريت : (بصوت خافض) صه إن هذا فى رتبة الأمراء .

جمال الدين : أيها السادة قد انتهى وقت الزيارة . (يتوجه نحو أنجو ليضع
القيد فى يديه) .

لويس : إنها لا تستقبلنا عند القدوم ولا تشيعنا عند الذهاب كأنما
نحن من السوق !

مرجريت : بدمتك يا سيدى ألا تدرك ما ينطوى عليه ذلك من معنى
نبيل ؟

لويس : من معنى نبيل ؟

مرجريت : أجل .. يعز عليها أن ترى أسيرها الملك والقيد فى يديه .

(يتوجه جمال الدين إلى بواتيه ليضع القيد فى يديه) .

لويس : إذن فلتعلم عبدها هذا أدب السلوك فلا يبدأ بأخوى قبلى .

مرجريت : يا سيدى إن التعصب قد حجب عنك كل معنى جميل . ألم
تلاحظ أنه يجعلك أول من يُطلق عنه القيد ، وآخر من يُعاد

القيد فى يديه ؟

(دار ابن لقمان)

لويس : أتظنين أنها هي التي أمرته بذلك إكراما لي ؟
مرجريت : كان ينبغي أن تدرك هذا حينما أبدلتك بقيدك الحديد قيدا من الذهب .

لويس : (يحرك رأسه في أسى وتهكم) صحيح ! لكيلا يصدأ في يدي !

(يقبل جمال الدين حاملا قيدا من الذهب فيضعه في يدي لويس في لطف ولكن دون كلام . ثم ينحنى لهم مومنا إلى الباب الثاني ليتبعوه ويسبقهم إليه فيقف هناك . ويرى كل زوجة تعانق زوجها وتقبله فيز رأسه قليلا ويخفض بصره . يخرج الثلاثة فيخرج خلفهم ويوصد الباب) .
(تنطلق بياتريس وتتبعها چان نحو الشباك فتطلعان منه ، وتبقى مرجريت واقفة حيث هي في وجوم) .

مرجريت : (تمر بيدها على بطنها وهي تتشم في أسى) ابن آدم يموت وعمله يبقى من بعده ! إنه ما زال يتهمني . لا بأس .. لا ينبغي أن أحقد عليه وهو في حال تستدر العطف .
(تقبل الأميرتان نحو مرجريت ، وتدخل شجر الدر فتدنو منهن باسمة متطلقة) .

بياتريس : (تتهد في نشوة) آه متى يأتي الأحد القادم ؟

چان : بعد سبعة أيام طوال .

مرجريت : لكنني لن أحضره معكم .. سأكون يومئذ في دمياط .

شجر الدر : هل وافق زوجك الملك ؟

مرجريت : نعم .

شجر الدر : (فى رقة) سوف يوحشنى غيابك يا مرجريت .
مرجريت : وأنا لن أنسى لطفك يا شجر الدر وفضلك وإحسانك .
شجر الدر : كنت أود أن أرى طفلك !
مرجريت : سترينه بعد ما يتم الصلح ويسود السلام .
شجر الدر : إن شاء الله .

النسوة الثلاث : (كالمسرورات بتعلم هذه الكلمة) إن شاء الله .
شجر الدر : (تأخذ بيد مرجريت) هلم بنا إلى الداخل . (يتوجهن
نحو الباب الأول فيخرجن)
(يدخل أحمد من الباب الأول بعد قليل فيذرع البهو جيئة
وذهوبا وهو فى قلق شديد وكآبة بينة ، ثم تدخل شجر
الدر) .

شجر الدر : ما خطبك يا أحمد ؟ ماذا جرى ؟
أحمد : لم أجدها يا مولاتى فى دار أهلك .
شجر الدر : لم تجدها .. أين ذهبت ؟
أحمد : سألت عنها أهله وخدمه فلم يخبرنى أحد منهم بشيء قاطع .
ووجدتهم جميعا فى قلق وخوف ، وسألت عن عز الدين
أهلك فقالوا خرج من الصباح ولم يعد .

شجر الدر : (فى قلق شديد تحاول كتمانها) ... ؟
أحمد : أخشى يا مولاتى أن يكون أهلك نفسه قد اتفق
شجر الدر : مستحيل !

(يسمع وقع أقدام من جهة الباب الثانى ، ثم يدخل جمال
الدين) .

- جمال الدين : هذا عز الدين أيبك يا مولاتي .
- شجر الدر : ادخل يا عز الدين (يدخل أيبك في اضطراب وكآبة)
ويلك أين ذهبت ناعسة ؟ ماذا فعلتم بها ؟
- أيبك : رجال توران شاه يا سيدتي .. اقتحموا بيتي في غيابة
وغياب رجالي فأخذوها بالقوة .
- شجر الدر : ولم تتركب في أثرهم حين علمت ؟
- أيبك : ركبت يا سيدتي وركب معي رجالي فلم نفع لهم على أثر .
- أحمد : (لأيبك في غضب) لو كنت مكانك أيها الأمير المبجل ،
لأنطلقت إلى هذا السلطان الداعر فقتلته . كيف ترضى
لنفسك أن يقتحم رجاله دارك ؟ أما كان من الجائز أن
يحملوا زوجتك إليه ؟ ائذني لي يا مولاتي ..
(يتوجه نحو الباب ليخرج) .
- شجر الدر : إلى أين يا أحمد ؟
- أحمد : سأدركهم بنفسى .. لن أعتمد على هؤلاء المماليك .
- أيبك : انتظر حتى أبعث معك بعض رجالي ..
- أحمد : احتفظ بهم عندك ليحرسوا زوجتك !
- أيبك : خذ سيف الدين قُطز فهو صديقك .
(يخرج أحمد منطلقا) .
- أيبك : (يهرع إلى الشباك فينادي بأعلى صوته) يا قُطز !
يا سيف الدين ! انطلق مع صديقك أحمد النحال . اركب
معه حيثما ذهب .
(يظهر أقطاي على الباب) .

أقطاي : هل لي يا سيدتي أن أدخل ؟

شجر الدر : ادخل يا أقطاي .. تعال أشير علينا في أمر صاحبك السلطان .

أقطاي : (في شماعة خفيفة) أحقا يا عز الدين ما سمعت من مملوكك قطر ؟

شجر الدر : (تجلس على الأريكة) هلموا اجلسوا أمامي . أوصد علينا الباب يا جمال الدين . (يجلس أقطاي وأبيك ، ويوصد جمال الدين البابين ثم ينضم إلى زميليه) .

شجر الدر : (تندفع في غضب) إلى متى تسكتون على سلطانكم هذا ؟ ما بقي إلا أن يخطف النساء من بيوتنا ويوتكن . أليس فيكم غيرة ؟ أليس فيكم شهامة ؟

أقطاي : يا سيدتي لو كانت ابنتك عندي في بيتي لما اجترأ عليها أحد .

أبيك : ويلك أنا ورجالي كنا غائبين عن البيت .

أقطاي : ولوا !

شجر الدر : (صائحة) كفى ! تتناقرون أمامي كالديكة .. هذا كل

ما تحسنون . أما الدفاع عن مصالح الأمة وأعراض الناس وسمعة الدولة فأنتم عنه تجنبون . لطالما أهانني وطالبني بما عندي وما ليس عندي من أموال أبيه بزعمه وأنتم صامتون .

ثم استغثت بكم لتحملوا جوارينا وغللماننا من فسقه وفجوره فكنتم جميعا تتصللون . ظللتم تتملقونه وتزلفون

إليه طمعا في الجاه والمنصب والمال حتى أفسدتموه فوق فسادهم .. فماذا نلتم منه ؟ ألم يجعل الأمر والنهي لرجاله ،

وقلدهم المناصب ، وأقطعهم الأموال وأطرحكم كالجمال
الجرب ؟

(ينظر بعضهم إلى بعض دون كلام) .

شجر الدر : (ماضية في كلامها) لقد كنتم شجعانا في تحدى ذلك
القائد العظيم الذى لم تنجب الأمة مثله ، فظلمتم تناوئونه
وتكايدونه ثم تركتموه يلقي جموع الفرنج وحده حتى
استشهد . (يغلبها البكاء فيلجمها عن الكلام) .

أقطاي : لا ينبغي لك يا سيدتى أن تستثيرى أشجانك بذكرى رجل
قد مات وانقطع اليوم عن كل سبب بيننا وبينه .

شجر الدر : (تتجلد قليلا) حتى بعد موته ما تركتموه يستريح في
قبره . ظلمتم توغرون صدر توران شاه عليه حتى انتزع
أملاكه من ورثته وأنتم تنظرون ، وصار يذمه في كل مجلس
وأنتم تسمعون !

أقطاي : ماذا كنا نفعل يا سيدتى ؟ كان ينكر أمورا صدرت حقا من
فخر الدين . كان فخر الدين قد أنفق الأموال وأطلق
المحاييس فلم يترك للسلطان شيئا حين جاء .

شجر الدر : ويلكم فيم أنفق الأموال ؟ أليس على مصالح الأمة ! إذ أبطل
كثيرا من المكوس ؟ .. وأطلق المحاييس ، أليس ليشتروا في
الدفاع عن الوطن ؟

أيلىك : وأنكر عليه أيضا أنه أطلق السكر والكتان .

أقطاي : أجل . هذا صحيح .

شجر الدر : ويلكم . أطلق السكر والكتان لأهل الشام حرصا على

الوحدة بيننا وبينهم .. ألم تدركوا بعد أن وحدتنا هي الدرع
التي تقينا جميعا من طمع الطامعين من الغرب والشرق ؟
أقلبون حسنات الرجل إلى سيئات ؟

أييك : معذرة يا سيدتي . نحن ما قلنا ذلك . السلطان هو الذي قال .
شجر الدر : بل تحسدونه حيا وميتا . ويلكم كنتم تدعون أنكم تخافون
على مستقبلكم منه ، مع أنه كان يسعى إلى ما فيه خير الأمة
وصلاحها ، ومعه عهد بذلك من مولاكم المرحوم . فأين
هذا الفاجر منه ، ولا عهد له من السلطان أبيه إلا ذلك العهد
الذي زورناه له وحلفنا عليه الناس . ها هو ذا يقضى على
مستقبلكم بالفعل ، وفي الحقيقة لا في الظن ، وأنتم بعد
مترددون متخاذلون . ويلكم ماذا تنتظرون ؟ أنتظرون
حتى يقتلني ويتخلص مني ؟ إذن والله لا تقوم لكم قائمة
بعدي ، وليجعلنكم عبيدا لأوغاده الدين للمهم من حصن
كيفاً وديار بكر !!

أييك : كلا يا سيدتي ، لقد عاهدناك على أن نكون معك على كل
قريب وبعيد ولن نتخلى عنك أبدا . ونحن ما صبرنا عليه إلى
اليوم إلا رعاية لك ولمولانا أبيه . أما وقد أذنت فوالله
لأخلصنك منه ولو فقدت رأسي . إن رأسي فداء لك .
(يغمز جمال الدين لأقطاي خفية ، كأنه يقول له لا تدع
أييك يسبقك إلى هذه اليد عند شجر الدر) .

أقطاي : رويدك يا عز الدين . أنا أولى بتأديبه منك . أنا الذي
أحضرتة بنفسى من حصن كيفا فعلى أنا ورجالي أن

نخلصكم منه . والله لا يقتله سوانا .

أيك : لكنه أهانني أنا .

أقطاي : بل أهاننا جميعا ، وأهان سيدتنا شجر الدر . وهذه مهمة خطيرة إن أخفقت فسيكون فيها هلاكنا جميعا .

أيك : أتستعين بي وبرجالي ؟

أقطاي : رجالي أقوى من رجالك . ليس عندك مثل بيبرس !

أيك : عندي سيف الدين قطز !

أقطاي : ليس عندك غيره ، وعندي كثير من أنداد بيبرس .

أيك : سيف الدين قطز يعدل هؤلاء جميعا .

أقطاي : (محتدا) لكني أنا لا يعدلني أحد !

شجر الدر : كفى نزاعا أمامي ، ليتوّل هذا الأمر بيبرس فهو أشرسهم جميعا .

(يتغير وجه أيك ويتبلج وجه أقطاي) .

جمال الدين : يجب يا مولاتي أن نفكر أولا فيمن يخلف توران شاه إذا قُتل .

أقطاي : أصبت يا جمال الدين . هذا واجب .

شجر الدر : رويدكم . هذه فرصة أتاحتها الله لنا لتنفيذ الوصية .

أقطاي : (في ذعر) أية وصية ؟

شجر الدر : وصية مولانا المرحوم الصالح أيوب أن تختار الأمة من توليه أمرها .

أقطاي : ليجنّد من عامة الشعب فلا يبقى لنا عيش في البلد ولا مكانة ؟ والله لا نقبل هذا أبدا .

أيبك : أجل يا سيدتي هذه فكرة فخر الدين ، ومن أجلها قاومناه
ولا يمكن أن يقبلها أحد .

شجر الدر : ألم تشهدوا بأعينكم كيف أن نظام الملوك لم يعد صالحا ،
وكيف جر علينا وعلى البلاد هذا الوبال .

أقطاي : اطمئني يا سيدتي ، فلن نقبل بعد اليوم ملكا يرث عن أبيه
لا من آل أيوب ولا من غيرهم . سنجعل الحكم متداولاً فينا
نحن المماليك ، فنحن الذين حمينا هذه الدولة بدمائنا وعلى
أكتافنا قامت وعاشت .

أيبك : هذا رأى سديد وهو ما يقبله الجميع .

أقطاي : لن نرضى أبداً أن يحكمنا رجل من العامة ، نضع مستقبلنا
ومستقبل ذرارينا في يديه .

شجر الدر : (بعد صمت يسير) قد علمتُ أن هذا لن توافقوا عليه ،
فمن الذى ترونه فيكم أصلح اليوم لهذا الأمر ؟
(ينظر بعضهم إلى بعض) .

أقطاي : أقوانا ناصرا وأكثرنا رجالا .

أيبك : قد لا يكون الأقوى هو الأصلح .

جمال الدين : الرأى عندى حسما للخلاف وإنصافا للحق ، أن تختاروا
مولاتنا شجر الدر ، فهى زوجة سيدنا ومولانا ، ثم هى
منكم وأنتم منها فى الأصل .

أيبك : والله إن هذا هو الرأى . (فرحا لأنه سبق أقطاي إلى هذه
الكلمة) .

شجر الدر : لكنى لست رجلا .

جمال الدين : أنت عندنا بألف رجل .

شجر الدر : (تتعمم) بألف (يغلبها الحزن فلا تكمل كلمتها) .

أييك : ما خطبك يا سيدتي ؟

شجر الدر : لا شيء .. لا شيء .

أقطاي : لا تهتمي . سنكون نحن معك نشد أزرك ونعاونك في كل شيء .

(يسمع طرق على الباب الثاني) .

شجر الدر : انظر يا جمال الدين من الطارق ؟

(يخرج جمال الدين ثم يعود) .

جمال الدين : (في شيء من الاضطراب) هذا الحاجب يا مولاتي ، يقول إن وفدا من رجال السلطان يستأذنون عليك .

(ينظر بعضهم إلى بعض) .

أقطاي : دعهم يدخلوا ، فوالله يا سيدتي لئن أرادوا شرا لا يخرجون من هنا إلا إلى الحفر !

شجر الدر : (في اتران) ائذن لرئيس الوفد وحده .

(يخرج جمال الدين ويبقى الثلاثة صامتين في توقع وقلق)

(يعود جمال الدين ومعه رجل ضخمة الجثة كرية المنظر

يرفل في هندام فاخر لا ينسجم مع هيئته) .

الرجل : سلام عليك أيتها السلطانة زوجة والد مولانا السلطان .

شجر الدر : وعليك السلام . ماذا وراءك ؟

الرجل : معي رسالة شفوية من مولانا السلطان المعظم توران شاه .

(يقلب بصره في وجوه الثلاثة) .

شجر الدر : أذُ رسالتك فهؤلاء خواص رجالى .

الرجل : (فى اعتداد بنفسه) كما تشائين . إنه غاضب عليك يا مولاتى لأنه طلب منك اللؤلؤ الذى عندك فأرسلت إليه مسحوق اللؤلؤ .

شجر الدر : (ساخرة) قل لمولايك السلطان إني سحقت له اللؤلؤ فى الهاون ليتخذ منه علاجاً للعلة التى عنده .

الرجل : إن مولاي ما عنده علة .

شجر الدر : فلماذا طلب اللؤلؤ الذى أتخلى به ؟

الرجل : ليضم قيمته إلى بيت مال المسلمين .

شجر الدر : لبيت مال المسلمين أم لبيت تلك المرأة الفرنساوية ؟

الرجل : (يطرق قليلاً كأنه يفكر فيما ينبغى أن يقول ثم يستأنف

حديثه) وقد تلقى كتابك يا مولاتى فى أمر أسرى الفرنج فقرأه بعناية . ويسر قلبه الرحيم أن يستجيب لنصيحتك فيمنع قتل الأسرى ، بشرط أن تحضر ملكتهم إلى جنباه ومعها الأميرتان ، ليشفعن لهم فيقبل شفاعتهن .

شجر الدر : (تكظم غيظها) ارجع إلى مولاي فقل له إن هؤلاء

السيدات فى قصرى وفى حمايتى ، ولا يمكن أن أتخلى عنهن لأحد .

الرجل : يتشفعن عنده ثم يرجعن إليك .

شجر الدر : حسبه الله . ألا يعلم أن الملكة حبلى فى شهرها التاسع ؟

الرجل : فى شهرها التاسع ؟ إذن فلتصحبنا الأميرتان وحبهما دون

الملكة .

شجر الدر : الأميرتان أيضا عندهما حمل .

الرجل : هل لي أن أفتشهما لأنقل إليه الخبر ؟

شجر الدر : (ثائرة) ويلك يا وقح ! انظر أمام من تتكلم .

الرجل : أنا يا مولاتي مأمور من ملك البلاد .

شجر الدر : لا طاعة لملك البلاد في مثل هذا الأمر القبيح .

الرجل : مولاتي السلطانة لا تضطريني ورجالي أن نحملهن من عندك بالقوة .

(ينطلق نحو الشباك لينادي رجاله فيشب نحوه أقطاي
بسرعة البرق) .

أقطاي : (يطعنه بخنجر) اخسأ يا كلب !

الرجل : (يصيح) قتلوني ! قتلوني ! .. اصعدوا يا رجال !

أقطاي : (يصيح مناديا) انتظروا يا أوغاد حتى ألحقكم
بصاحبكم .

(يجري الرجل مترنحا صوب الباب ويلتفت إلى شجر

الدر فيقول بصوت كالخشرفة) غدا ينتقم لي السلطان
منك ومنكم جميعا .

شجر الدر : أخرجوه من هنا لا يلطخ المكان بدمه النجس .

(يدفعه أيك وجمال الدين حتى يخرجاه به . ثم يعودان
وهما يمسحان من أيديهما أثر الدم) .

شجر الدر : الآن يجب أن تعاجلوه . لقد قتلتم رسوله في قصرى ولن
يسكت عنا حتى يهلكنا جميعا . أدر كوارجاله في الطريق !

أقطاي : أجل علينا أن ندرّكهم ثم ننطلق إلى فارسكور .
(يخرج مسرعا ويخرج خلفه أيك) .
شجر الدر : تصحبكم السلامة والتوفيق .

(ستار)

المشهد السابع

المنظر

: نفس المنظر السابق .

(الوقت أول الضحى)

(يرفع الستار عن ناعسة وچان وبياتريس داخلات من الباب الأول وهن يتضحكن في مرح) .

چان

: ما هذا يا كونتس أنجو ؟ إنك ضايقت الفتاة .

بياتريس

: ضايقتك يا ناعسة ؟

ناعسة

: أبدا .. أنا مسرورة .

بياتريس

: سمعت يا كونتس بواتيه ؟ أرينى الآن يا ناعسة (تقف

أمامها ناعسة فتأملها في إعجاب) .

ناعسة

: ماذا تنظرين فى ؟ قد فعلت هذا مرارا من قبل .

بياتريس

: أنا لا أشبع منك أبدا . (يضحكن) .

چان

: إنها مجنونة يا ناعسة .

ناعسة

: (ضاحكة) لا بأس .. دعها تنبسط .

بياتريس

: (تتأمل ناعسة ظهرا وبطنا) يا له من قوام ! هذا التهافت

في الخصر ! وهذه الرباوة في الردف ! . ثم انظرى يا كونتس

بواتيه هل رأيت قط مثل هاتين الكمثراتين ؟

چان

: استحى ، لقد أخجلت الفتاة .

بياتريس : الخجل يزيد لها جمالا . انظري إلى لون خديها .. إنه لون
عجيب . وانظري إلى عينيها . مثل عينيها تماما . وإلى فمها .
طبق الأصل .

جان : لا عجب فهو ابن عمها .
بياتريس : ما أحلاها ! ما أحلاك يا ناعسة !
ناعسة : (باسمه) أنت عندى أحلى .. عيناك الزرقاوان وشعرك
هذا الذهبى .

بياتريس : من هذا عندنا كثير .
ناعسة : ومن هذا أيضا عندنا كثير .

بياتريس : نتبادل ؟

ناعسة : يا ليت .

بياتريس : صحيح ؟

ناعسة : صحيح .

بياتريس : (فى أسف وحسرة) لكن كيف ؟

جان : (تشير إلى جهة الباب الثانى) صه !

(يدخل جمال الدين من الباب الثانى وخلفه أيبك

وأقطاي ، فيفاجأون بوجود الأميرتين مع ناعسة) .

جمال الدين : أين ستك السلطانة يا ناعسة ؟ أخبريها أننا حضرنا .

(تخرج ناعسة والأميرتان) إن سألتكما عنى فقولاً لها

إننى سأحضر الفرنسيس وأخويه حسب أمرها .

(يخرج) .

أيبك : (بصوت خافض) رأيت يا فارس الدين ؟ رأيت هاتين

الشقراوين ؟ ما رأيك فيهما ؟

أقطاي

: مليحتان .

أبيك : لو خيرت بينهما فأيهما تختار ؟ الكبرى أم الصغرى ؟

أقطاي

: ويلك زوجاهما موجودان ..

أبيك

: على فرض أنهما قتلا في المعركة .

أقطاي

: (ينظر إليه في ارتياب) ليس من عادتي أن أفترض ما ليس بواقع .

أبيك

: على فرض أنه وقع .. على فرض .

أقطاي

: إذن فإني أختار الملكة .

أبيك

: (فيما يشبه الدعر) الملكة ؟ أية ملكة ؟

أقطاي

: (يعد بأصبعيه) الملكة التي في بالي ، والملكة التي في بالك .

أبيك

: (يتغير وجهه قليلا ولكنه يتجاهل قصده) لكن زوجها الفرنسي موجود .

أقطاي

: افرض يا أخى أنه غير موجود .

أبيك

: كيف وبيننا وبينه اتفاق قائم ؟

أقطاي

: إذن فساكتفى بالملكة التي زوجها غير موجود . هل يرضيك هذا الجواب ؟

أبيك

: إنك لم تفهم قصدى .

أقطاي

: بل فهمته يا عز الدين .

أبيك

: كنت أسألك عن أسيراتنا الشقراوات .

أقطاي

: وقد أجبت على سؤالك : تلك التي في دمياط الآن والتي

اسمها مرجريت هي التي على مزاجي . إنها .. إنها ..

أيك : إنها ماذا ؟

أقطاي : إنها .. على مزاجي !

أيك : (يتصنع الضحك) ما دامت هذه على مزاجك ، فانتظر

قليلا لعل زوجها الفرنسيس يقع له شيء .

أقطاي : (ينظر إليه في خبث) لكن خل بالك يا أيك . الملكة

الأخرى أيضا لي . هي من دمي ومن ذوقي ، لن أجد لي

أصلح منها ولن تجد لها أصلح مني .

أيك : لا حق لك أن تتفوه بمثل هذا القول في السلطنة .

أقطاي : لم لا ؟ أنا الذي أجلسها على العرش .

أيك : بل نحن جميعا اخترناها للعرش .

أقطاي : أنا الذي قتلت السلطان .

أيك : أنت ؟

أقطاي : أنا ورجالي .

أيك : وأنا ورجالي اشتر كنا معكم في ذلك .

أقطاي : ويلك ، أفتريد أن نتزوجها شركة ؟

أيك : صه إنها جاءت .

شجر الدر : (تدخل) صباح الخير .

الاثنان : صباح الخير يا سلطنة المسلمين .

أيك : يا عصمة الدنيا والدين . يا أم خليل المستعصمية يا

شجر الدر : (تجلس على أريكها) كفى ألقابا يا أيك ، فعندنا ما هو

أهم (توميء لهما فيجلسان) .

أقطاي : يا مولاتي نحن قتلنا لك توران شاه ووليناك الحكم لتفصلي في أمر هؤلاء الفرنج ، ولا تبقيه معلقا هكذا إلى ما شاء الله .

شجر الدر : ماذا تشير علينا أن نصنع يا أقطاي ؟

أقطاي : يا مولاتي .. بعد هذا الكتاب الذي تلقيته أمس من حسام الدين ، لا يبقى لنا عذر إذا لم نقتل هذا الفرنسي وأخويه ، ثم ننقض على دمياط .

أيك : أجل يا مولاتي . هذا هو الرأي .

شجر الدر : لكن كيف نقتل الفرنسي وهو رهن في أيدينا نستطيع أن نساومهم عليه ؟

أقطاي : قد اتضح الآن أنهم لا يبالون بأمره .

أيك : وليس له عندهم قيمة .

شجر الدر : إذن فماذا يعود علينا من قتله ؟

أيك : لا شك عندي أنه يحرضهم سرا على المماطلة .

شجر الدر : ما عندنا على ذلك دليل قاطع .

أيك : أنسيت يا مولاتي ما كان منه عقب مصرع السلطان ؟ ألم يمتنع

من تجديد الاتفاق معك وأصر على ألا يوقعه إلا مع سلطان من آل أيوب .

شجر الدر : لكنه رضى بعد ذلك ووقعه ، فليس لنا عليه سبيل .

أقطاي : فليبق هو عندنا ، ولننطلق لاسترداد دمياط .

أيك : هذا حل وجيه .

شجر الدر : كلا إني ما زلت أنتظر جوابا من الملكة مرجريت لعلها

تنجح في مسعاها .

أقطاي : لها الآن شهر هناك ولم تصنع شيئا ، ولم تكتب إليك بشيء .
شجر الدر : لا تنسوا أنها كانت على وشك أن تضع ، فلعل الولادة
شغلتها قليلا .. فلا بأس أن ننتظر . وقد بعثت في طلب
الفرنسيس وأخويه لأكلمهم في هذا الشأن ، فلننظر ماذا
يقولون .

(يدخل جمال الدين) .

جمال الدين : مولاتي ...

شجر الدر : أحضرتهم ؟

جمال الدين : نعم .

شجر الدر : أدخلهم .

(يدخل لويس وبواتيه وأنجو ، فتنهض لهم شجر الدر
مرحبة ولكن ليس ذلك الترحيب الحار الذي قابلتهم به في
المشهد السابق . أما هم فقد أظهروا لها احتراما أكبر من
ذي قبل) .

شجر الدر : تفضلوا بالجلوس (تشير إلى ثلاثة مقاعد أمامها في الجانب
الأيسر ، فيجلسون يتوسطهم لويس) أيها السادة ، جاءنا
أمس كتاب من مندوبنا حسام الدين يبلغنا أنه يش من
إقناع حاميتكم في دمياط بالإقلاع عما درجوا عليه من
التسويق والمماثلة في تنفيذ شروط الصلح ، فماذا ترون ؟
لويس : ما ذنبي أيتها السلطنة ؟ أنا محبوس هنا عندكم ، فما يدريني
ماذا يجري هناك ؟ وقد وافقت على سفر زوجتي الملكة إلى
دمياط لعلها تصنع شيئا ، ولكني لا أدري من أمرها اليوم

شيئا .

(بهم بواتيه بالكلام ، فيومئ له لويس بالمنع) .
شجر الدر : (في استياء واضح ولكن مع اتران) إذن يكون لنا معكم
شأن آخر . لا تحسبن أيها الملك أننا نعجز عن تحرير دمياط
بالقوة . ولكننا ارتبطنا معكم بعهد ولا نحب أن ننقضه حتى
تنقضوه أنتم . إني أريد أن أعرف هل ما زلت أنت كبيرهم
المسئول أم قد تخلوا عنك ؟ لقد ماطلوا في المرة الأولى
واعتذروا بقتل السلطان ، فقبلنا عذرهم وجددنا الاتفاق
كالأول دون تعديل ، مع أنه كان في وسعنا أن نتمسك
بشروط أخرى في صالحنا ولكننا لم نشأ أن نستغل
الظروف ، وقد اعتبرتك وأسرتك ضيوفا عندي فكرهت
أن أدخل بواجب الضيافة . وقد أرسلنا حسام الدين نفسه
ليشرف على تنفيذ الاتفاق في دمياط ، لأنك أنت اخترته ولم
ترد أحدا غيره فأجبنك إلى طلبك ، فأى شيء تريدون بعد ؟
إن كنتم تريدون حربا فصارحونا بذلك لنتصرف على
أساسه .

بواتيه : (لم يستطع صبرا) ملاعين خونة . اكتب إليهم يا سيدى
بأنك تعتبرهم خونة ، وأنتك برىء منهم ما لم يبادروا في
الحال بتنفيذ الاتفاق .

أنجو : وهل تظنهم يصدقون كلامه وهم يعلمون أنه أسير ؟
بواتيه : ليصدقوه أو لا يصدقوه . عليه أن يكتب إليهم بذلك ، حتى
يرى ذمته على الأقل أمام هذه السلطانة العظيمة التي طوقتنا

بإحسانها ، وعاملتنا معاملة لم يسبق لها مثيل في تاريخ الحروب .

لويس : إني قد كتبت لهم في ذلك من قبل .. ولا أحب لكلامي أن يداس بالأقدام مرة أخرى .

بواتيه : من حقت يا سيدى ، بل من واجبك ، أن تعاقب أولئك الذين داسوا على كلامك بالأقدام .

لويس : ويلك كيف أعاقبهم وأنا محبوس معك في دار ابن لقمان ؟
(يسمع طرق على الباب الثانى فينهض جمال الدين إلى الباب) .

أنجو : (كالمعتذر) لا بأس يا مولاتى السلطنة أن نتظر قليلا حتى تسفر الأمور .

جمال الدين : (يعود) رسول يا مولاتى من حسام الدين .
شجر الدر : إيدن له .

(يدخل جوهر الفخرى فتطلع العيون إليه بمشاعر مختلفة من الحب والكراهية والدهش) .

جوهر : سلام عليك يا مولاتى السلطنة .

شجر الدر : وعليك السلام يا جوهر . أنت رسول حسام الدين ؟

جوهر : نعم .. أبشرك يا مولاتى بفتح دمياط (يقدم لها كتابا مختوما) .

شجر الدر : (تفض الكتاب بيد مرتعشة من التأثر ، ثم تتصفحه والجميع بين قلق وفرح ومدهوش) الحمد لله قد استولى المسلمون على معظم دمياط ، ولو لم يوقفوا الزحف نزولا

على أمر حسام الدين لاستردوها كلها .

الممالك الثلاثة: (فرحين) الحمد لله .

(يصفر وجه لويس ، ويبدو بواتيه كالشامت بأخويه ،
أما أنجو فيبدو كالمرتاب في صحة الخبر) .

لويس : هذا نقض صريح للاتفاق ما كنا نتوقعه منكم ، بل هذا غدر
صارخ .

أنجو : أجل .. لعل حاميتنا ما امتنعوا عن التنفيذ إلا لتوقعهم مثل
هذا الغدر .

بواتيه : هم المسئولون على كل حال . ما آخرهم حتى اليوم ؟
شجر الدر : رويدا أيها السادة . إن الذين هاجموا دمياط ليسوا من
جنودنا ، وإنما هم المتطوعون من عامة الشعب ومن عربان
الناحية .

(يبدو الاكثاب على وجوه الممالك الثلاثة) .

لويس : (في حدة) أنتم مسئولون عن هؤلاء .

شجر الدر : كلا .. ليس لنا عليهم سلطان . هذه البلاد التي غزوتوها
ظلما وعدوانا هي بلادهم قبل أن تكون بلادنا . والدين
الذي حاربتموه بجهلكم وتعصبيكم هو دينهم أيضا كما هو
ديننا . وقد رأوا في صلحنا معكم تقريبا في حقوقهم وما
سكتوا عليه إلا مجاملة لنا ورغبة منهم في معاونتنا على تضييد
جراح الحرب . ولكنهم انتظروا طويلا يرقبون من جانبيكم
تنفيذ الشروط حتى نفذ صبرهم ، فقاموا بما قاموا مضحين
بأموالهم وأرواحهم ، حتى إذا شفوا بعض ما في صدورهم

استجابوا لدعوة مندوبنا فكفوا عن القتال لينظروا ماذا
نفعل . فمن ذا يستطيع أن يلومهم ؟

لويس : إن كان هؤلاء من رعاياك أيتها السلطنة فأنت مسئولة عما
فعلوه .

شجر الدر : عجباً لك . أليس الذين يحتلون دمياط من جنودك
ورعاياك ، فلماذا تنصّلت من تبعة عصيانهم لأوامرك ؟
جوهر : معذرة يا مولاتي ، لعلك لم تقرأى ما كتبه فى حاشية
الكتاب .

شجر الدر : ماذا فى الحاشية ؟

جوهر : إنه أذن للملكة مرجريت بالسفر إليك فهى قادمة فى
الطريق .

شجر الدر : (تنظر فى الرسالة مرة أخرى) صحيح . أهلاً بقدموها
فإنها ملكة عاقلة حكيمة ! (تنظر إلى لويس فيخفّض
بصره) .

أحمد : (يدخل) مولاتي السلطنة ، الملكة مرجريت تستأذن
عليك .

شجر الدر : (فى دهش) أحمد ! أنت يا أحمد الذى جئت بها من
دمياط ؟

أحمد : نعم يا مولاتي .

شجر الدر : (تنهض فرحة) أهلاً بها . مرحباً ألف مرحب . (تدخل
مرجريت شاحبة الوجه ، فيجرى بينها وبين شجر الدر
عناق طويل وتبادل قبلات حتى خيل إلى الحاضرين أنهم

في جلسة عائلية . ويتخلل ذلك تهامس بينهما حول التهنئة
باعتلاء شجر الدر العرش وحول الجنين الذي وضعته
مرجريت وهل هو ذكر أم أنثى ، ولماذا لم تحضره معها وما
أشبه ذلك . ثم تتركها مرجريت لتعاق زوجها وتصافح
أخويه) .

شجر الدر : (في خلال ذلك تلتفت إلى أحمد وجوهر) ادخل يا
أحمد . سلم على ابنة عمك واتفق معها على موعد الزفاف .
وأنت يا جوهر ادخل إلى سلافة فقد أعتقتها لأزوجها لك .
الاثنان : شكرا يا مولاتي السلطانة . (يخرجان فرحين من الباب
الأول) .

شجر الدر : اجلسي هنا بجانبى أيتها الملكة العزيزة .
مرجريت : شكرا يا مولاتي السلطانة .. سأجلس هنا بجانب زوجي
الملك . (تجلس على مقعد بجانب لويس) .

شجر الدر : هل لك أن تؤكدى لهؤلاء أن المصريين قد استولوا على
معظم دمياط ، فقد رأيت بعضهم يرتاب في صحة هذا
الخبر . (تلقى نظرة إلى أنجو فيخفض بصره) .

مرجريت : كيف يرتابون في شيء وقع ؟ وهل تجشمت أنا مشقة السفر
تاركة طفلي الرضيع إلا من أجل هذا الأمر الخطير ؟ (يتغير
وجهها لويس وأنجو) فلو أذنت لى يا مولاتي السلطانة أن
أشرح لهم حقيقة الحال حتى يحيطوا علما بكل ما كان يجرى
هناك ؟

شجر الدر : حبا وكرامة . سنترككم وحدكم لتداولوا الرأى في حرية

تامة .

(تنهض فينهض الجميع) .

مرجريت : شكرا لك يا مولاتي السلطانة .

شجر الدر : (للأمرء الممالك الثلاثة) تعالوا معي لأتشار معكم

(ثم للفرنج) سأبعث الأميرتين لتنضمنا إليكم (بلهجة

جادة) وأرجو أن تستقروا على شيء فلا تنقضوه مرة

أخرى . (تخرج ويخرج خلفها الأمرء الثلاثة) (تدخل

بياتريس وچان منطلقتين فتعانقان مرجريت وتحاولان أن

تجاذباها الحديث) .

مرجريت : رويد كما . سنتحدث عن كل هذا فيما بعد . اجلسا الآن

لنبحث مع رجالنا هذا الوضع الجديد .

(تجلس كل من چان وبياتريس بجانب زوجها ، ويجلس

لويس في الوسط بين أخويه ، بينما تجلس مرجريت أمامهم

جميعا) .

بياتريس : (في جرأتها وخفتها) ألا تأمرها يا سيدى الملك أن تحدثنا

أولا عن مولودها الجديد ؟

لويس : (تبدو الكراهية في وجهه) فيما بعد يا كونتس أنجو .

لدينا الآن ما هو أهم . (لمرجريت) أو لم يجدوا إلا أحمد

هذا ليعهدوا إليه بمرافقتك ؟

مرجريت : أنا يا سيدى التى اخترته واقترحته على حسام الدين .

لويس : (ساخرا) من أجل سابق إخلاصه فى خدمتنا ؟ (فى

حرقة) هذا الجاسوس اللعين .

مرجريت : لا تنس يا سيدى أنه هو الذى أنقذ حياتك فى معركة فارسكور ، ولولاه لكنت الآن فى عداد الهالكين .

لويس : كان الهلاك أحب إليّ من هذا الهوان .

مرجريت : ثم أنقذ أخيرا حياة زوجتك وطفلك فى دمياط .

لويس : كيف .

مرجريت : كان المهاجمون قد أحرقوا بالقصر الذى أنا فيه ، وقتلوا بعض

حراسه وهرب الآخرون وتركوا طفلى ، فأيقنت أنى

هالكة . وقررت أن أنزل إلى القوم فأقول لهم اقتلوني ولكن

أبقوا على هذا الطفل المسكين ، فإذا بصوت ينادينى : أيتها

الملكة لا تراعى فأنت فى أمان . فأطلت من الشباك فإذا هو

أحمد .

لويس : كان إذن يحاربنا هناك مع المحاربين ؟

مرجريت : أجل كان من الذين قادوا هذه الحملة ، فاستحق أن يقال إنه

أنقذ حياتك يا سيدى مرة أخرى .

لويس : (فى حدة) أنقذ حياتى ؟ ما هذا اللغو الذى تقولين ؟

بواتيه
أنجو
(فى صوت واحد) كيف يا صاحبة الجلالة ؟

مرجريت : إنكم لا تعرفون لماذا كان رجال الحامية يماطلون فى تنفيذ

الاتفاق .

لويس : لماذا ؟

مرجريت : ريثما تأتاهم الجموع والإمدادات التى يتوقعون وصولها

من أوربا ، فيعاودون القتال لغزو القاهرة من طريق

الإسكندرية . فقد بعثوا الرسائل سرا وأوفدوا الرسل لهذا الغرض .

أنجو : الخطة التي كنت أنادى بها . الخطة المثلى .

لويس : أجل . أى بأس عليهم فى ذلك ؟ إنهم ليستحقون الثناء منا والإعجاب .

مرجريت : أيستحقون الثناء والإعجاب لأنهم قرروا أن يضحوا بحياتك وحياة أسرتك ؟

لويس : هذا سوء ظن منك .

مرجريت : ليس هذا ظنا يا سيدى بل هو يقين . لطالما راجعت زعماءهم فى هذا الشأن وخوفتهم على حياتك فكانوا يجيبوننى : يا سيدتى كيف نضحى بحملتنا المقدسة من أجل رجل واحد ؟ ولقد بلغ من وقاحتهم أن قالوا لى : ارحلى أنت إلى عكا بطفلك حتى تأمنى الخطر على نفسك وعليه ، ولم يخطر ببالهم أننى لا أستطيع أن أتخلى عنك بأى سبيل .

لويس : من هم الذين قالوا ذلك ؟

مرجريت : كثير ، وفى مقدمتهم فرسان الداوية والاسبتارية .. هؤلاء الذين ما كفاهم أن رفضوا إعطائى شيئا من ما لهم للفدية حتى نخذلوا الآخرين عنها وثبطوهم عن التبرع لها .

بواتييه : الآن اتضح لنا كل شيء . لقد كانوا يلتفون حولك يا سيدى إذ كانوا يطمعون فى المغائم والمكاسب من ورائك . فلما رأوك أسيرا لا حول لك ولا قوة تخلوا عنك ونفضوا أيديهم منك .

لويس : لا ينبغي أن نؤاخذ الآخرين بجريرة جماعة قليلة ذات مذهب خاص .

مرجريت : كلهم يا سيدى على هذا المنوال . أتدرى ماذا فعل البنادقة والجنوية ؟ لقد وجدتهم ينشرون القلاع ليلبحروا راجعين إلى بلادهم ، فدعوتهم وأنا أعانى آلام الوضع ، وناشدتهم والدموع فى عيني أن يبقوا إلى أن يتم تنفيذ الصلح حرصا على حياتك . فما استجابوا لدموعى وتوسلاتى إلا بعد ما ضمنت لهم أن بقاءهم سيكون على حسابك .

أنجو : لا ينبغي أن نلوم هؤلاء ، فهم تجار قبل كل شيء .

بواتييه : وفرسان المعبد ، أتجار هم أيضا ؟

مرجريت : هؤلاء أسوأ وأوقع . أتدرون ماذا قالوا حين طلبت إليهم أن يسهموا فى مال الفدية ؟

بواتييه : ماذا قالوا ؟

مرجريت : قالوا كيف نعطي أموال المعبد هؤلاء الكفار وهى إنما جعلت لتصرف على قتالهم ؟ قلت : كيما نفدى بها الملك من أسرهم . قالوا : أليس حسب الملك منا أن أعفيناه من نفقاتنا ، أفريد منا أن ننفق نحن عليه ؟

لويس : (محتدا) قبحهم الله ، فليكن ديننا لهم على .

مرجريت : كيف يأمنونك على دين وفى نيتهم أن يعاودوا القتال ، فهم لا يعلمون ماذا يكون مصيرك ؟

لويس : (يتجسم الألم فى وجهه) كأنك يا عزيزتى ما استطعت أن تجمعى شيئا للفدية .

مرجريت : بلى يا سيدى .. استطعت بعد عناء شديد أن أجمع أربعمائة ألف دينار... نصف الفدية المطلوبة .

لويس : وأين وضعتها ؟

مرجريت : دفعتها لحسام الدين ، ووعدته بدفع الباقي حينما يطلقون سراحك ونعود إلى دمياط .

لويس : كيف تدفعينها وقد نقضوا الاتفاق وهاجموا المدينة ؟

مرجريت : لو لم أفعل لما استطاع حسام الدين أن يقنع المهاجمين بوقف الزحف .

لويس : أفلا تخشين أن يأكلوا المال علينا ويقتونا فى الأسر ؟

مرجريت : كلا يا سيدى ، ليس الغدر من شيمتهم ، ولكنه من شيمتنا نحن .

لويس : هل أخذت عليهم عهدا أن يحترموا الاتفاق الذى بيننا وبينهم كما كان ، دون أى تعديل ولا تعديل ؟

مرجريت : لا يا سيدى . رفض حسام الدين أن يتعهد لى بشىء إلا بعد الرجوع إلى السلطانة شجر الدر .

لويس : فلن تقبل هى الآن بعد ما علمت أن نصف الفدية قد دفع وأن الجزء الأكبر من المدينة قد سقط فى أيديهم . كان عليك ألا تدفعى المال إلا بعد أن تأخذى عليه العهد .

مرجريت : يا سيدى إني ما تجشمت السفر إلى هنا تاركة طفلى هناك وهو فى حاجة إلى عطفى إلا لأستعطف قلب السلطانة ، لعلها أن تقبل .

بياتريس : لا شك أنها ستقبل . إنها تحبك ، فلن ترفض لك أى طلب .

چان : أجل يا صاحبة الجلالة،.. لا حديث لها معنا في غيابك

إلا عنك وعن طفلك . ترى ماذا سميت به ؟

بياتريس : أجل يا أختي نريد أن نعرف اسمه .

مرجريت : سميت به چان تريستان .

چان : چان ؟!

مرجريت : چان تريستان .

بياتريس : تريستان .. لقب موسيقى جميل .

چان : چان .. اسم رومانسى حلوا !

مرجريت : (تتجلد) على اسم چان المعمدان ، لأنى استغثت به عند

الوضع فتيسر بعد ما تعسر . (تنظر إلى لويس فتجد وجهه

قد تغير واربد) هل لكم أن تتركوني قليلا مع زوجى

الملك فأنى لم ألقه من مدة ؟

بواتييه : نعم نعم .. كان علينا أن ندرك ذلك من تلقاء أنفسنا ..

تعالى يا چان . (يسحب ذراع زوجته فينتحى بها

ركنا) .

بياتريس : (تسحب ذراع زوجها) تعال يا شارل . (تنتحى به

ركنا) .

مرجريت : كيف حالك يا زوجى الحبيب ؟

لويس : (فى فتور) كما ترين .

مرجريت : ألم تشتق إلى حبيبتك ؟ ألم يوحشك غيابها أيام الأحاد ؟

لويس : (فى غير نية) بلى .

- مرجريت : فما بالى أراك كهييا كاسف البال ؟
- لويس : لهذه الكارثة التى حلت بنا .
- مرجريت : لويس ، كن شجاعا وصارحنى بما فى قلبك .
- لويس : قد صارحتك بكل ما فى قلبى أمام الجماعة .
- مرجريت : إنك لم تسألنى عن طفلك .
- لويس : صحيح . ساعينى يا عزيزتى فقد شغلنى الخطب عنه .
- كيف حاله ؟ كيف حال الطفل ؟
- مرجريت : لويس ، إنك تشك فيه ، هذا واضح .
- لويس : نعم . وأنت التى أثرت فى الشك إذ سميت جان .
- مرجريت : على اسم جان المعمدان لما استغثت به ساعة الـ ...
- لويس : (مقاطعا) ألم تجدى فى القديسين والقديسات غير جان المعمدان ؟
- مرجريت : هذا الذى حضر فى اسمه ساعتها من دونهم .
- لويس : هذا مما يؤيد الشك .
- مرجريت : يا سيدى إنك لا تعرف جان دى بوا ، فقد أعمتك الغيرة عن حقيقته . لقد كان فارسا شهما طاهر الذيل نبيل العاطفة . وما كان ليقبل تدنيسى ولو طلبت منه ذلك .
- لويس : (فى تهكم مر) أجل أجل ، ولهذا أسمعك تتغزلين فيه حتى اليوم ، ومن يدرى لعلك تناغين به طفلك فى مهده !
- مرجريت : (تنشج باكية) ساعحك الله يا لويس ، أبعد كل هذا الذى قدمته فى سبيلك تهمنى ظلما فى أعز ما أملك ؟ والله لولا خوفى على مستقبل ابنك الصغير لرجوتك أن تطلقنى

لتنزوج بعدى امرأة شريفة لا تخونك ولا تنسب أبناء غيرك
إليك .

(تنخرط فى البكاء) .

لويس : (يربت على كتفها مواسيا) مرجريت .. لا تبكى
يا عزيزتى .. أنا .

مرجريت : (تنحى يده عنها) دعنى ، دعنى ، لا أريد عطفك هذا
الزائف .

لويس : (فى رقة واستعطاف صادقين) مرجريت ، سامحيني
يا مرجريت . أنا رجل بائس كما تعلمين (يخالط صوته
البكاء) وسأبقى بائسا ما بقى اسم قشتالة يتردد فى
الوجود . تعرفين كل ذلك يا مرجريت . فبالله عليك ألا ما
أرحت قلبى .

مرجريت : (بين العطف والاستياء منه) كيف أريح قلبك ؟ ماذا أفعل ؟

لويس : لا تخافى الآن منى ، فقد أصبحت مدينا لك بحياتى وحررتى
وكل شىء . ثقى يا حبيبتى أننى لن ألومك بعد اليوم ، ولن
أؤاخذك بشىء ، ولن أذيع الحقيقة على الناس ، ولن أتبرا من
الطفل ، بل سأعتبره ابنا شرعيا لى وأعامله كغيره من
أولادى دون فرق . ولكنى أريد أن أعرف فقط . لا أريد أن
يعذبنى الشك طول حياتى . إن فى اليقين لراحة للقلب ولو
كان شديدا الإيلام له . أتوسل إليك يا مرجريت .. أتوسل
إليك (يبكى) .

مرجريت : لولا أنك فى حاجة إلى عطفى الآن وقد تخلى عنك جميع

الناس لعاقبتك بما تستحق .

لويس : عاقبيني بما تشائين يا مرجريت ، ولكن صرحى لى
بالحقيقة . أريد الحقيقة مهما تكن .

مرجريت : لكن كيف أجعلك تصدقنى ؟ أأحلف لك يا لويس ؟ فقل
لى بم أحلف لك ؟

لويس : احلفى لى بكرامة السيد المسيح وطهارة مريم العذراء .

مرجريت : (فى خشوع) أحلف بكرامة السيد المسيح وطهارة مريم
العذراء وحرمة القديسين والقديسات جميعا أن الولد لمن
صليبك أنت ، وما مسنى بشر قبلك ولا بعدك . وإلا فلينزل
الله على رأسى صاعقة من السماء تطوينى الساعة ، وترمينى
فى قعر جهنم ! (تبكى) .

لويس : (ييكى فرحا) الحمد لله ، الحمد لله الآن اطمأن قلبى .
(يوسعها تقييلا فى كل موضع من جسمها) اغفرى لى
يا مرجريت فأنت خير من أمى . الحمد لله . لا أبالى الآن
بشئ ولو قتلونى ، ولو أبقونى طول الحياة فى الأسر .

مرجريت : (تقبله فرحة) بل ستعيش طويلا يا حبيبى ، وتخرج من
أسرك فى عز وكرامة .

لويس : (يتمم) چان تريستان . أجميل هو يا مرجريت ؟

مرجريت : جدا يا حبيبى .

لويس : صفيه لى .

مرجريت : إنه صورة منك .

لويس : (ضاحكا فى سداجة) صورة منى ؟ تباله : ألم يأخذ شيئا

من حسنك وملاحتك؟

مرجريت : (تنهض) سأصفه لك فيما بعد . دعنى الآن أدخل إلى السلطنة فإنها تنتظرنى .

لويس : (ينادى الآخرين) تعالوا يا جماعة . إنها ستدخل عند السلطنة لتكلمها فى الأمر . (يدنو الآخرون منها وعلى وجوههم بعض الكآبة والقلق) .

مرجريت : أجل رأيت أن أدخل إليها لأكلمها وحدى ، لعل هذا أفضل .

لويس : ويلكم ما بالكم مكتئين؟

أنجو : لا شيء يا سيدى .. نخشى على الملكة أن ترفض السلطنة طلبها . أو تملى عليها شروطا قاسية .

مرجريت : اطمئنوا من هذه الناحية . (تتوجه نحو الباب الأول) .

لويس : اطمئنوا جدا . (يتبع زوجته نحو الباب) تلطفى معها يا عزيزتى .. وشرحى لها .. لا لا لست فى حاجة إلى توصية . قد فوضت الأمر إليك فاتفقى معها كما تشائين . لن أعترض على شيء .

مرجريت : (عند الباب) إن شاء الله . (تخرج) .

لويس : إن شاء الله . (ينضم فرحا إلى الآخرين) ألم تسمعوا النبأ العظيم؟

بياتريس : ما هو يا سيدى؟
بواتيه :
لويس : إنه صورة منى .

چان : من هو يا سيدى ؟
لويس : (كالمغضب) من هو ؟ ابنى چان تريستان !
چان : معذرة يا سيدى ، إنه إذن طفل جميل . ليتها سمته لويس الصغير .

لويس : لويس الصغير ؟ كلا ! چان تريستان لتخليد هذه الذكرى .. ذكرى آلامنا وأحزاننا فى هذه الحملة المقدسة . (فى لهجة تقريع) إنه يا كونتس بواتيه رمز كالصليب إن كنت تجهلين .

چان : (تخفض بصرها خجلا) صدقت يا سيدى .. رمز كالصليب !

لويس : (فى خشوع) فلنصل الآن لأيننا الذى فى السماء .
(يصطفون حوله فى وقار) ليحفظ لنا أمير الغال چان تريستان وينبته نباتا حسنا ويباركه . (يرسم علامة الصليب) باسم الآب والابن والروح القدس .

الجميع : (يرسمون علامة الصليب) باسم الآب والابن والروح القدس .

(يمضون فى صلاتهم مبتلين خاشعين)
(تدخل شجر الدر ومرجريت وخلفهما الأمراء الثلاثة . وتتوجه شجر الدر نحو أريكتها فيقبل لويس ومن معه نحوها) .

شجر الدر : لعلكم كنتم تصلون من أجل السلام .
لويس : (متطلق الوجه) أجل يا مولاتى السلطانة من أجل

السلام ، ومن أجل ابني العزيز چان تريستان . (يتسم
لمرجريت فتتسم له) .

شجر الدر : (تجلس) إذن فقد استجاب الله لكم فيما دعوتوه .
(توميء لهم بالجلوس فيجلسون) إني قد قبلت رجاءكم في
إمضاء الاتفاق كما هو دون تغيير ولا تبديل . وغدا
سترحلون إلى دمياط لتتفقوا مع نائبنا حسام الدين على
ما يلزم .

الفرنج : (في فرح وابتهاج) شكرا أيتها السلطنة العظيمة .
شجر الدر : الفضل في ذلك لصديقتي العزيزة الملكة مرجريت .
مرجريت : نحن جميعا عاجزون عن شكرك ، ولكن ثقي أيتها السلطنة
العظيمة أنني سأكون لسان صدق لكم في أهل بلاد
الغرب ، حتى لا تحدثهم أنفسهم بغزو بلادكم العظيمة مرة
أخرى .

شجر الدر : (في ابتسام ومودة) يا عزيزتي الملكة . إن عادوا فنحن لهم
بالمرصاد . وهذا شاعرنا ابن مطروح يقول في هذا الشأن :
وقل لهم إن أزمعوا عودة
لأخذ ثأر أو لفعل قبيح
دار ابن لقمان على حالها

والقيد باق والطواشي صبيح
(يضحك الجميع ما عدا أنجو ففي وجهه كآبة) .

لويس : (يقهقه ضاحكا ويضرب يده على منكب أنجو) دار ابن
لقمان . ها ها ها ها ها . الطواشي صبيح . ها ها ها ها .

شجر الدر : لا تخف يا كونت أنجو . لن تعودوا إلى دار ابن لقمان ولا إلى الطواشي صبيح . ستقيمون جميعاً هنا في القصر حتى يحين رحيلكم . جمال الدين ، أنزل الملك وحاشيته في حجرات القاعة الوسطى ، ومر بأن تهيأ لهم جميعاً وسائل الراحة . جمال الدين : سمعاً يا مولاتي السلطانة . (تومئ للويس وحاشيته) تفضلوا أيها السادة . (يتقدمهم نحو الباب الأول فيخرجون خلفه) .

أقطاي : والله يا مولاتي إنهم لا يستحقون هذه المعاملة .
أليك : أجل يا مولاتي . كان في وسعنا اليوم أن نتحكم فيهم .
شجر الدر : لا بأس أن يكون لنا الفضل عليهم . والمثل العربي يقول : إذا ملكت فأسجج ، وستسبقوهم أنتم بالعساكر حتى تضمنوا أنهم لا يغدرون .

(يستأذنون أقطاي وأليك فيخرجان من الباب الثاني)
(يدخل أحمد وناعسة على استحياء) .

شجر الدر : (باسمه) هيه ماذا فعلتما ؟ هل اتفقتما على تعيين موعد الزفاف ؟

أحمد : نعم يا مولاتي .. ثاني يوم بعد رحيل الصليبيين من دمياط .

شجر الدر : جميل . وأين جوهر وسلافة ؟

ناعسة : هما يا ستي في فناء القصر مما يلي البحر .

شجر الدر : (ضاحكة) ماذا يصنعان ؟ يصطادان السمك ؟

أحمد : يتناجيان يا مولاتي ويتبادلان الأحلام في ظل نعمتك .

شجر الدر : اذهب الآن يا أحمد إلى سيف الدين قطز ، فبشره بأنني

قد وافقت على زواجه من جاريتي جلنار .

أحمد : (في شيء من الدهش) جلنار !

ناعسة : ماذا بك يا أحمد ؟ ألا تعرف أنه يحبها ؟

أحمد : لا والله ما أخبرني ولا عندي علم .

شجر الدر : (في إعجاب) صاحبك كتوم السر .

ناعسة : (في دلال) وليس مثلك . حدثت الدنيا كلها .

شجر الدر : هيا اذهب فقل له إن عرسكم أنتم الثلاثة سيكون في يوم واحد .

أحمد : والله لآخذن منه البشارة . (ينطلق خارجا من الباب

الثاني) .

شجر الدر : وأنت يا ناعسة ادخلي إلى جلنار فبشرها .

ناعسة : حالا يا ستي لآخذ منها البشارة أيضا . (تخرج من الباب

الأول) .

شجر الدر : الحمد لله . هؤلاء الأبطال الثلاثة سيكونون صنائعي وأعواني .

(تقوم من أريكتها فتنظر في المقاعد حتى تجذب واحدا منها

فتضعه حيث كان فخر الدين جالسا عليه ليلة قابلته آخر

مرة ، فتسويه في رقة وحنان ، وتتهجد وهي تتمم) آه لو

عاش إلى اليوم ذلك البطل العظيم ! واهها عليك يا فخر

الدين ! كلما جادت الأيام علينا بنصر ذكرناك فأثارت

شجوننا ذكراك . (تغيم عيناها بالدمع وترفع بصرها إلى

السماء) يا إلهي ما ضر لو عاش حتى يرى اليوم ثمرة

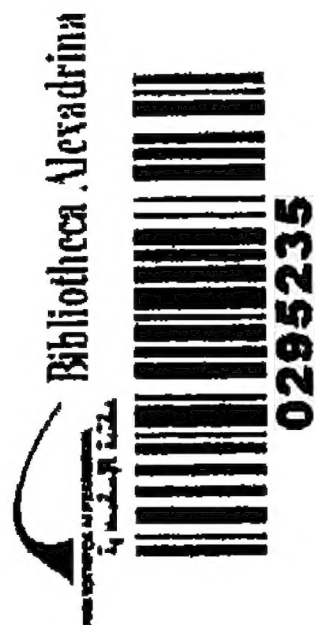
جهاده في نصرة دينك وإعلاء كلمتك ، إذن يا ربى لجلس
مكاني على هذا الكرسي رجل عربى قوى أمين ، يوحد
كلمة العرب والمسلمين ، ويصون بلادهم من طمع
الطامعين ، ويحيى ما ألمات الحكام من نظام الإسلام ، وينشر
العدل والطمأنينة والسلام .

(ستار الختام)

رقم الإيداع ٧٧/٢٦٢٦

الترقيم الدولى ٧ — ١٣٠ — ٣١٦ — ٩٧٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفيحالة



الثلث ٣٧٥ قرشا

دار مصر للطباعة
م.م. محمد ده السحار وشركاه

To: www.al-mostafa.com